روح القرآن
الكريم
تفسير جزء
قد سمع
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
طبعة خاصة
لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

تفسير

جزء قد سمع

روح القرآن الكريم

تفسير

جزء قد سمع

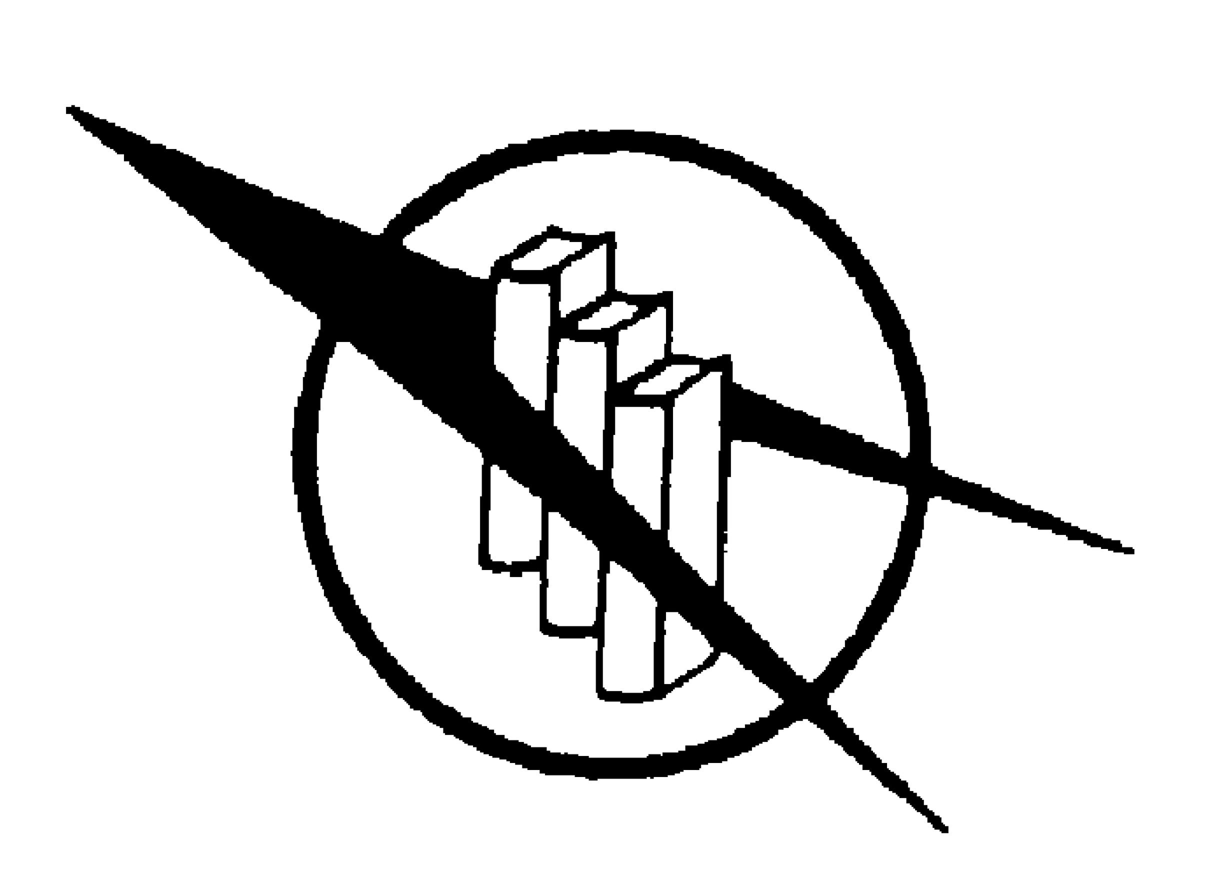
الجزء الثامن والعشرون

بقلم

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

الطبعة التاسعة
٢٠٠٨

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
www.malayin.com



مُقـــدِّمَة

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، وبعد :

يقرأ المسلم القرآن فيشعر بالسكينة تنسكب على قلبه ، ويحس بالطمأنينة تسري في عروقه ، عندها ينسى الدنيا ومشاكلها ، فتسكن جوارحه بعد قلق ، ويطمئن قلبه بعد اضطراب ، وقد صدق الله في وصفه للقرآن :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء : ٨٢ .

ولا ريب في أن القرآن الكريم تختلف مواضيعه بين سورة وسورة ، وجزء وجزء ، وتتنوع أبوابه بين ما أنزل في مكة وبين ما أنزل في المدينة .

ويتضح جلياً أن ما أنزل بمكة يأخذ طابع التركيز على ترسيخ العقيدة الإسلامية في القلوب ، وأخذ النفوس على الإيمان ، وحملها على النظر والتأمل في الكون وفي الإنسان من جهة ، وإغراقها بمشاهد يوم القيامة ، ومصير الإنسان في يوم الدينونة من جهةٍ أخرى .

ولقد استمرت الآيات القرآنية تنزل في مكة ثلاث عشرة سنة ، حتى إذا اكتمل الإيمان في النفوس عندئذٍ وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حُقَّ للدعوة الإسلامية أن تتوجّه إلى تنظيم الأمة الإسلامية في معاملاتها الدنيوية ، وحُقَّ للتشريع أن ينصرف إلى النظم الاجتماعية والإدارية مما يعود على الأمة بالخير والصلاح ، كما حُقَّ للتشريع أن يخص المرأة باهتمام يعيد إليها حقوقها المهضومة .

نخلص من هذا التقديم لنفيد القارىء الكريم أن هذا الجزء « قد سمع » سُوَرُهُ مدنية نزلت في المدينة ، ومن هنا سيجد القارىء أن مواضيعه تختلف اختلافاً بيّناً عن مواضيع الجزءين السابقين (عمّ وتبارك) اللذين نزلا بمكة .

فهذا الجزء الذي بين أيدينا تُعنى مواضيعه بتوجيه المسلمين في أمور

دنياهم ، وتنظيم شؤونهم الحياتية في ما هو في مرحلة الانتقال من فترة الجاهلية إلى حظيرة الإسلام ، كما هو في موضوع الظهار المفصّل في (سورة المجادلة) أو تشريع ما يستجد في حياتهم كما في (سورة الطلاق) التي تعرضت لبيان أحكامه وما يترتب عليه من تنظيمات تتعلق به ، أو معالجة أمور كانت راهنة ويمكن أن تتكرر في كل زمان كما في (سورة المنافقون) ذاكرة صفاتهم التي من أظهرها الكذب ومخالفة الظاهر للباطن ، وتآمرهم على الرسول وعلى المسلمين ، أو التعرض لحادثة معينة بين النبي وبين بعض زوجاته في (سورة التحريم) حيث تبين أن إفشاء السر بين الزوجين ، والإفراط في الغيرة يسيء إلى الحياة الزوجية ويعكر صفاء العيش في العائلة . أو في (سورة الممتحنة) التي تحذر المؤمنين من موالاة أعداء الله الذين آذوهم واضطروهم إلى الهجرة وترك الديار ، موجهة إياهم وجهة خاصة قوامها الولاء المطلق للدعوة الإسلامية وإيثار هذا الولاء على رابطة القربى .

هذه جولة في بعض سُوَرِ هذا الجزء مشيرين إلى أن هذه المواضيع بالذات لم تستأثر بكل فصول هذه السور ، إذ لا تنسى السورة أن تأخذ بشعور الإنسان وتشده إلى خالقه متخذة من الحادثة عبرة ، ومن الواقعة منطلقاً للرجوع إلى الله ، تذكّره بأن لا يخلد إلى هذه الحياة الفانية ، وأن لا يعيقه شيء من مغريات الدنيا عن هدفه الأسمى وغايته من الوجود ، وأن مصيره إلى الله المصدر الذي عنه انبثق وإليه يعود ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ المنافقون : ٩ .

ولقد أحسن المؤلف الأستاذ عفيف طبارة إذ درج في تفسير هذا الجزء على غرار سابقيه (عمّ وتبارك) فتوخى السهولة والوضوح وتجنب التعقيد ، والخوض في أمور مستفيضة تبعد القارىء عن جوهر الموضوع . وهو بذلك يقدم للقارىء الزبدة الصافية من المعاني ، بعد أن يكون قد غربل مئات الصفحات ، ليظفر منها بأسطر قليلة يراها صالحة للقارىء في هذا العصر .

ويكفي تنويهاً بفضل المؤلف أنه بهذا التفسير وما سبقه يفتح أعين الناس على معاني القرآن الخفية ، ويلفت العقول إلى أسراره الرائعة ، فإذا الناس يقبلون على تصفح القرآن الكريم بفهم وانفتاح ، ويتلقفونه بشغف وارتياح ، وعسى الله أن ينفع بهذا التفسير هذه الأمة ، ويأخذ بيدها إلى الحق والنور .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (١) ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم
مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ
ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ

شرح المفردات

تُجادِلُك في زوجها : تحاورك الكلام في شأن زوجها .

وتشتكي إلى الله : تتضرع إليه وتظهر له حزنها وضعفها .

تحاوركما : حديثكما وجدالكما .

يُظاهرون : الظهار هو أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، فتحرم عليه.

ما هُنَّ أمهاتهم : زوجات الرجال لسن أمهاتهم .

مُنكراً من القول : كلاماً قبيحاً .

وزوراً : كذباً .

المعنى الإجمالي

قد سمع الله قول المرأة التي تراجعك الكلام - أيها النبي - في شأن زوجها الذي حرمها على نفسه ، وتتضرع إلى الله أن يحل كربتها ، والله يسمع ما جرى بينكما من حوار وحديث ، إن الله سميع بصير .

والذين يقولون لنسائهم أنتن محرمات علينا كأمهاتنا هم مخطئون ، فليست زوجاتهم أمهاتهم ، وما أمهاتهم في الحقيقة إلاّ اللاتي ولدنهم ، وإن قولهم هذا

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن
يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ

شرح المفردات

يعودون لِمَا قالوا : يعودون لنقض ما قالوا وتحليل ما حرموا .

فتحرير رقبة : منح الحرية لرقيق (عتق عبد أو أمة) .

من قبل أن يتماسّا : من قبل المعاشرة الزوجية .

ذلكم : أي ذلك الحكم بالكفارة .

تُوعظون به : الوعظ نصيحة مقترنة بتخويف .

فصيام شهرين متتابعين : صيام شهرين متواصلين دون انقطاع .

حُدُودُ الله : شرائعه وأحكامه التي لا يجوز تجاوزها .

مسكيناً : فقيراً يستحق الصدقة .

تابع المعنى الإجمالي

هو قول منكر وباطل ، والله عظيم العفو والمغفرة .

والذين يقولون لنسائهم : أنتن محرمات علينا كحرمة أمهاتنا علينا ثم يندمون ويودون إبطال ما قالوا ، يجب عليهم كفارة ، وهي عتق رقيق من قبل أن يتعاشرا معاشرة الأزواج ، هذا الحكم الذي شرعه الله لكم هو زجر لكم لتتركوا هذا التحريم لنسائكم والله خبير بكل أعمالكم . فمن لم يجد رقيقاً ليحرره فعليه صيام شهرين متتابعين بدون توقف عن الصوم قبل أن يعاشر زوجته ، فمن لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكيناً ، تلك حدود الله فلا تتعدوها ، وللكافرين عذاب أليم موجع .

يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

شرح المفردات

يُحادُّون الله : يُعادون الله بمخالفة أوامره .

كُبتوا : أُذِلُّوا وأُخذوا بالعذاب .

آيات بيِّنات : حججاً واضحة وأحكاماً لا غموض فيها .

عَذابٌ مُهينٌ : عذاب يحقِّرهم ويخزيهم .

يَبْعَثُهم الله : يحييهم بعد موتهم ليحاسبهم على أعمالهم .

فينبِّئهم : يخبرهم .

أحصاه الله : أحاط الله بما عمل كل منهم .

شهيد : مطلع وناظر لا يخفى عليه شيء .

نجوى : حديث خافت بين اثنين فأكثر .

ولا أدنى : ولا أقل .

تابع المعنى الإجمالي

إن الذين يعادون الله بمخالفة أوامره أولئك يُذلّون ويهلكون كما حصل لسابقيهم من كفار الأمم ، وقد أنزل الله آيات واضحات في أحكامها ، وللكافرين عذاب مهين . ويوم القيامة يبعثهم الله أحياء بعد موتهم فيخبرهم بما عملوا في دنياهم ، وقد أحصى الله أعمالهم ، وإن هم نسوها ، فعلم الله محيط بكل شيء لا يغيب عنه أمر من الأمور .

ألم تعلم يا محمد أن الله مطلع على كل ما في السماوات وما في الأرض ، ما يكون من حديث سرّي بين ثلاثة إلاّ ويكون الله رابعهم يسمع نجواهم ،

رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ
إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا
عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ
حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ
حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ

شرح المفردات

الإثم : الذنب ، وهو ما لا يحل فعله للإنسان .

العُدوان : الظلم والاعتداء .

معصية الرسول : عصيان النبي ﷺ وعدم طاعته .

لولا يُعذِّبنا الله : هلاّ يعذبنا الله .

حسبُهم جهنم : يكفيهم عذاب جهنم في الآخرة .

يَصْلَوْنَها : يدخلونها ويقاسون حرها .

المصير : المرجع .

تناجيتم : تحدثتم سراً .

تابع المعنى الإجمالي

ولا خمسة إلاّ ويكون هو سادسهم ، ولا يتناجى أقل من هذا العدد ولا أكثر إلاّ ويكون معهم يعلم ما يتناجون به ثم يخبرهم الله يوم القيامة بما عملوه إنه بكل شيء عليم .

ألا تعجب أيها النبي من أمْرِ هؤلاء المنافقين ، وأمْرِ اليهود الذين نهيتهم عن التحادث سراً فيما يؤذي المؤمنين لكنهم رغم هذا النهي يعودون إلى تناجيهم بالإثم والعدوان على المؤمنين ، ومعصية أوامرك ، وإذا جاءوك حيّوك بكلام لم يحيّك به الله ، ويقولون في أنفسهم : لو كان محمد نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول ،

فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِٱلْبِرِّ
وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ
لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا

شَـرح المفـردَات

البِرّ : كلمة جامعة لكل صفات الخير .

التقوى : حفظ النفس عن الآثام .

تُحشرون : تُجمعون أمامه يوم القيامة لمحاسبتكم .

لِيَحْزُنَ : ليوقع في الهم الشديد .

فليتوكل المؤمنون : فليعتمدوا على الله ويفوضوا أمرهم إليه .

تفسَّحوا : توسعوا .

تـابع المعـنى الإجمَالي

هؤلاء تكفيهم جهنم يقاسون حرها ، وبئست هذه النهاية لهم .

يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله إذا تحادثتم سراً فلا تتناجوا بالإثم والاعتداء على الغير ومعصية النبي ، بل تناجوا متواصين بفعل الخيرات ، والتحرز من الآثام ، وخافوا الله وحده الذي تجمعون إليه يوم القيامة . إن التناجي بالإثم والعدوان هو من تزيين الشيطان يوسوس به في صدور المنافقين واليهود ، ليدخل الهم والحزن إلى قلوب المؤمنين ، وليس هذا بضار المؤمنين شيئاً إلاّ بمشيئة الله ، وعلى الله وحده فليفوض المؤمنون أمرهم إليه ويعتمدوا عليه .

يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله إذا طُلب منكم أن توسعوا في المجالس لقادمين يريدون الجلوس بينكم فأوسعوا لهم يوسّع الله عليكم برحمته ، وإذا قيل

يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ
فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ
يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

شرح المفردات

انشزوا : قوموا في المجلس لتوسعوا للمقبلين عليكم .

درجات : مقامات عالية في الكرامة في الدنيا ، والثواب في الآخرة .

بين يدي نجواكم : قبل مناجاتكم له .

فإن لم تجدوا : فإن كنتم فقراء لا تجدون ما تتصدقون به .

أأشفقتم : هل خفتم الفقر إذا تصدقتم .

تاب عليكم : خفف عنكم ، وأباح لكم مناجاة الرسول من دون صدقة .

إلى الذين : هم المنافقون .

تابع المعنى الإجمالي

لكم قوموا وتراجعوا لتوسعوا على الجالسين فقوموا لذلك ، يرفع الله مكانة المؤمنين المخلصين ، والذين أوتوا العلم درجات في الآخرة والكرامة في الدنيا ، والله بما تعملون خبير .

يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم مناجاة رسول الله فقدّموا قبل مناجاتكم له صدقة للفقراء، ذلك خير لكم وأطهر لقلوبكم، فإن كنتم فقراء لا تجدون ما تتصدقون به فإن الله واسع المغفرة شامل الرحمة . هل خفتم الفقر من استمرار التصدق ؟ فإذا لم تفعلوا فإن الله خفف عنكم ورخّص لكم مناجاة الرسول من غير تقديم الصدقات ، فحافظوا على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله والله

وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى
ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ

شَرح المفـردَات

تولّوا : اتخذوهم أولياء (أي أصدقاء ونصراء) .

قوماً غَضِبَ الله عليهم : هم اليهود .

أَيْمَانَهُمْ : جمع يمين وهو الحلف أو القسم .

جُنَّة : وقاية وستراً .

فصدّوا عن سبيل الله : منعوا الناس عن دين الله .

لن تُغْنِيَ عنهم : لن تنفعهم .

تابع المعنى الاجمالي

خبير بما تعملون فيجازيكم عليه .

ألم تر أيها الرسول إلى هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا قوماً غضب الله عليهم ـ وهم اليهود ـ نصراء وأصدقاء ، فالمنافقون ليسوا من المؤمنين ، وليسوا من اليهود ، وهم مع هذا يحلفون كذباً بأنهم مؤمنون وهم يعلمون بأنهم كاذبون في حلفهم ، لقد هيأ الله لهؤلاء المنافقين عذاباً بالغ الشدة ، وإن أعمالهم هذه قبيحة سيئة . وقد اتخذوا من قسمهم بأنهم مؤمنون ، ستراً ووقاية يدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ما قد يصيبهم منكم ـ أيها المؤمنون ـ من عقاب لهم على كفرهم ، وراحوا يصرفون الناس ويمنعونهم عن الإسلام ، هؤلاء لهم عذاب شديد المهانة . لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولن تَرُدَّ عنهم من عذاب الله شيئاً

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ
كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾
ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ
إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ

شــرح المفــردات

يبعثهم الله : يخرجهم الله أحياء من قبورهم يوم القيامة .

إِسْتحوذ : استولى وغلب على عقولهم .

حِزْبُ الشيطان : جماعته وجنده .

يُحَادُّون : يعادون .

الأذلِّين : جمع أذل ، أي في زمرة من أذلهم الله لعصيانهم .

كَتَبَ الله : قضى الله وحكم .

تابع المعنى الإجمالي

أولئك أهل النار هم خالدون بالعذاب . ويوم القيامة حين يبعثهم الله أحياء من قبورهم للحساب يقسمون لله كذباً أنهم كانوا مؤمنين كما يقسمون لكم الآن ، ويظنون أن الكذب ينجيهم في الآخرة كما نجاهم في الدنيا ، ونسوا أن الله يعلم خفايا قلوبهم ، ولكن لن ينفعهم القسم لأنهم يكذبون . لقد استولى عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون .

إن الذين يعادون الله ورسوله أولئك في عداد من أذلهم الله في الدنيا والآخرة . ولقد قضى الله أن الغلبة والنصرة هي لدينه ورُسُله في هذه الدنيا ، إن الله له القوة والغلبة على أعدائه لا يغلبه شيء .

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

شَـرح المفـردَات

يُوادُّون : يحبون ويصادقون .

عشيرتهم : العشيرة هي القبيلة ، ومعشر الرجل أهله .

كتب في قلوبهم الإيمان : ثبّته ومكنه في قلوبهم .

أيّدهم : قواهم ونصرهم .

برُوح منه : بنور ورحمة منه أو بنصر منه .

المفلحون : الفائزون .

تابع المعنى الإجمَالي

لا تجد ـ يا محمد ـ قوماً يُصدّقون بالله واليوم الآخر يبادلون المودة من عادى الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم أو من أهلهم ، أولئك المؤمنون ثبّت الله في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بنصر من عنده ، وسوف يدخلهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا ينقطع عنهم نعيمها ، رضي الله عن أعمالهم الصالحة ورضوا هم عن مكافأة الله لهم بما أثابهم من النعيم ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم الفائزون .

سُورَةُ المجَادَلَةِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تستهل بإصلاح بعض تشريعات العرب في الجاهلية في ما يتعلق بالمرأة وهو ما يسمى (الظهار) . والظهار أن يقول الرجل لزوجته : أنت عليَّ كظهر أمي ، فإذا قال الرجل لامرأته هذا الكلام تحرم عليه ولا تطلق منه وتبقى هكذا معلقة ، وقيل : إنه كان طلاقاً يوجب حرمة مؤ بدة لا رجعة فيه .

ولا بد أن نوضح أن الظهار هذا كان سارياً قبل الإسلام يمارسه أهل الجاهلية ويصيب المرأة بظلم عظيم لا مبرّر له ، ومن هنا انبرت هذه السورة تتصدى لهذه العادة الجائرة وتبطلها من أساسها ، وتوضح حكم الشريعة فيها .

ولقد رُوي أن أوس بن الصامت غضب على زوجته خولة بنت ثعلبة ، فقال لها : أنت عليَّ كظهر أُمي ، فاستعظمت ذلك خولة وأنكرت أن يقول لها زوجها هذه المقالة ولها منه الأولاد والعِشرة الطويلة. بيد أنه لاح لها أن الدين الجديد ـ دين الإسلام ـ الذي دخلت فيه مع زوجها سيكون فيه الملاذ والمخرج ، ولا بد أن يهدم هذه الشرعة الجاهلية الظالمة ، فذهبت خولة إلى النبي ﷺ تشكو إليه ظلم زوجها ، فقالت يا رسول الله : أكل مالي ، وأفنى شبابي ونثرت له بطني[1] ، حتى إذا كَبِرَتْ سني ظاهر مني ! فجعل رسول الله ﷺ يقول لها : ما أراك إلاّ قد حرمت عليه ، فتقول يا رسول الله :

---

(١) ونثرت له بطني : أرادت انها كانت شابة تلد الأولاد عنده .

ما طلقني والله ، وإن لي منه صبية صغاراً إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، فماذا ترى ؟ وأخذت تجادله وتراجعه وتتضرع إلى الله ، فنزلت الآية :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُون مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

فالله سبحانه رحيم بعباده قد سمع قول تلك المرأة المظلومة التي جاءت إليك أيها النبي تجادلك وتراجعك القول في زوجها التي حرمها على نفسه بالظهار ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتتضرع وتشكو أمرها إلى الله ، لقد سمع الله تضرع هذه المرأة ، وأنزل في شأنها تشريعاً يرفع عن كاهلها الظلم .

فالظهار في نظر الإسلام باطل في أساسه ، لأن الزوجة ليست أمّاً حتى تكون محرمة على الرجل كالأم ﴿ الذين يُظاهِرونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهم مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ فالأم هي التي ولدت ﴿ إنْ أُمهاتُهم إلاَّ اللائي وَلَدْنَهُم ﴾ ولا يمكن أن تتحول الزوجة إلى أم بمجرد النطق بتلك الكلمة المنكرة المشوبة بالكذب ﴿ وإنَّهم لَيَقُولُونَ مُنكراً مِنَ القَوْل وزوراً ﴾ .

وبعد أن بيّن الله الظهار على حقيقته تنتقل الآيات إلى بيان حكمه الشرعي :

﴿ والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ

فَصِيَامُ شَهْرَيْن مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ولِلْكَافِرينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ثم يَعودونَ لِمَا قالوا ﴾ أي يرجعون عما قالوا ويريدون استمرار العلاقات الزوجية وتحليل ما حرموه على أنفسهم بالظهار ، فكفارة ذلك ﴿ تحرير رقبة ﴾ أي إعتاق عبد من الرق وجعله حرّاً ذكراً كان العبد أو أنثى ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً بهذا قال بعض الأئمة[1] .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يتماسَّا ﴾ أي من قبل المعاشرة الزوجية ، ثم يقول سبحانه : ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أي أن هذه الكفارة الشاقة الباهظة هي زجر لكم عن التلفظ بكلمة الظهار حتى لا تعودوا إليها .

فإذا لم يجد من يريد الكفارة رقيقاً ليحرره ، أو مالاً يشتري به رقيقاً لعتقه ، فعليه صوم شهرين متتابعين ، فلا يفصل بالفطر يوماً عن يوم ، أو شهراً عن شهر ، فمن لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكيناً قوت يوم غداءً وَعَشاءً ، أو يدفع لهم من المال قيمة ذلك القوت ، ولا يلزم أن يطعمهم مرة واحدة ، بل يجوز أن يطعم بعض الستين مسكيناً في يوم وبعضهم في يوم آخر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حدُودُ الله ﴾ أي تلك شرائع الله وأحكامه التي يجب أن لا يتعداها المؤمنون .

ثم يأتي الوعيد من الله لمن يتعداها بقوله : ﴿ وللكافرين عذابٌ أليمٌ ﴾ .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الذين يعادون الله ورسوله :

---

(١) منهم الإمام أبو حنيفة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ، واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

فالذين يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي خُذلوا وذُلّوا كما خُذِلَ الذين من قبلهم من الأمم والجماعات السابقة الذين كفروا وعصوا ربهم وهذا ما وقع للمشركين في غزوة بدر فإن الله أذلهم بالهزيمة وأهلك الكثير منهم . فهذا النص القرآني إنذار من الله لكل الجماعات التي تسير على غير المنهج الذي شرعه الله في الأرض . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي أن الله أنزل آيات واضحات تدل على صدق النبي ﷺ وصحة ما جاء به من عند الله . ويضيف الله قوله : ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي عذاب يذهب بعزهم وكبريائهم . أما مصيرهم في الآخرة فهو سبحانه ﴿ يَبْعَثُهُمُ ﴾ أي يحييهم بعد موتهم يوم القيامة ﴿ فينبِّئهم بِمَا عَمِلُوا ﴾ تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً لحالهم. وأعمالهم هذه أحصاها الله بواسطة ملائكته بينما هم قد نسوها ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسوهُ ﴾ وهو سبحانه ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب عن علمه شيء .

وبعد ذلك تأتي الآيات التالية تعرض سعة علم الله تعالى وإحاطته بما في السماوات والأرض واطلاعه على أسرار الناس :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّه بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

مطلع الآية يقرر علم الله بكل شيء في السمارات والأرض مهما عظم

أو صغر ، ثم تبين الآية علاقة الإنسان بخالقه الذي يسمع نجوى المتناجين قلَّ عددهم أو كثر ، مع تدوين ما يتناجون به وما يقترفونه من أعمال لمحاسبتهم يوم القيامة ، هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم تدفع بالإنسان إلى أن يراقب نفسه فلا يتكلم بكلام سوء ، ولا يأتي بأي إثم أو فاحشة خيفة وخجلاً من الله .

وينتقل القرآن إلى التنديد بموقف اليهود والمنافقين الذين يضمرون السوء للدعوة الإسلامية مع التعجب من موقفهم المريب ، وتهديدهم بالعذاب يوم القيامة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذين نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ والعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وإذا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بمَا لَمْ يُحيِّكَ بِهِ اللَّهُ ، وَيقولونَ في أَنْفُسِهِمْ : لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ : حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ المصيرُ ﴾ .

هذه الآية نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين ، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلّا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السَّرايا[١] قَتْلٌ أو موت أو مصيبة ، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم ، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك ، وعادوا إلى مناجاتهم[٢] .

وكان اليهود إذا جاءوا للنبي يحيونه بقولهم : « السام عليك » يوهمون

(١) السرايا : جمع سرية وهي قطعة من الجيش .

(٢) أسباب النزول للواحدي .

السلام ظاهراً ، ويعنون الموت باطناً لأن « السام » معناه الموت ، وكان النبي يدرك غرضهم فيقول : وعليكم ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَم يُحَيِّك به الله ﴾ والمراد من قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ في أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُول ﴾ أي هلّا يعاقبنا الله بما نقول لمحمد . لذلك ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ المَصيرُ ﴾ أي أن جهنم وما فيها من الهلاك ستكون كافية للتنكيل بهم ، وبئست هذه النهاية التعيسة لهم .

ويبدو أن بعض المسلمين الذين لم يترسخ الإيمان في قلوبهم كانوا يتجمعون في بعض الملمات ليتناجوا فيما بينهم بما يؤذي الجماعة المسلمة ، فهنا يأمر الله المؤمنين بقوله :

﴿ يَا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُم فَلَا تَتَنَاجَوْا بالإِثْمِ والعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالبِرِّ والتَّقْوَى ، واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

فالله سبحانه ينهى المؤمنين عن التناجي فيما بينهم بالإثم ، كما ينهاهم عن العدوان وهو كل ما يؤدي إلى الظلم ، وينهاهم أيضاً عن عصيان الرسول ومخالفته فيما يأمر به من الطاعات . أما المناجاة المطلوبة فالله يأمر بأن تكون في حدود فعل الخير وتجنب المآثم والمعاصي ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وتناجَوْا بالبِرِّ والتقوى ﴾ وزيادة على ذلك ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوه ، فأنتم إليه ﴿ تُحشرون ﴾ أي تجمعون يوم القيامة للحساب .

وإذا سيطر على المجتمع الإسلامي هذا المفهوم القرآني أصبحوا في ذروة التسامي والرقي الاجتماعي .

ولقد بيّن الله الباعث على النجوى بالإثم والعدوان :

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الذين آمنوا ، وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شيئاً إلاّ بإذْنِ اللّهِ ، وَعَلى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنُونَ ﴾ .

فالتناجي بالإثم والعدوان هو من وسوسة الشيطان ، الـذي يغري المتناجين بها ليوقع المؤمنين في الحزن ، ويدخل إلى قلوبهم الوساوس والهموم، ولكن الله يطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ بهم ما يريد إلاّ بمشيئة الله وإرادته فليعتمدوا على ربهم وليكلوا أمرهم إليه .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى تعليم المسلمين آداب الجلوس في حلقات العلم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ : تَفَسَّحُوا في المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللّهُ لَكُمْ . وَإِذَا قِيلَ : انْشُزُوا فَانْشُزُوا، يَرْفَعِ اللّهُ الَّذينَ آمنوا مِنْكُمْ وَالَّذِين أُوتوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ، واللّهُ بِمَا تَعْملُون خَبيرٌ ﴾ .

فقد كان المسلمون يتنافسون على مجلس رسول الله طلباً للعلم والفضل ، فإذا أقبل مسلم ليجلس قرب رسـول الله ضن الجالسـون بمجلسهم ، فأمرهم الله أن يوسع بعضهم لبعض ليتساوى الجميع في الجلوس ، وتلقي العلم من رسول الله .

ويمكن أن نستفيد من هذه الآية بأنها توجيه لإتاحة العلم لجميع الأمة ، وعدم تضييق مجال العلم ليقتصر على فئة ما ، فقد كان النبي ﷺ هو معلم الأمة ، وكان المسلمون يتنافسون لتلقي العلم منه ، وكان الجالسون حوله يستأثرون بمجلسهم ، فأمر الله المسلمين بأن يوسعوا لبعضهم البعض ويتيحوا العلم لغيرهم .

ومعنى ﴿ يَفْسَحِ اللّهُ لَكُم ﴾ أي يوسع عليكم في الدنيا والآخرة، وقيل:

يوسع الله منازلكم في الجنة ، فكل من وسّع على عباد الله أبواب الخير وسّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ انشُزوا فَانْشُزوا ﴾ والنشوز هو الارتفاع ، قيل المراد بذلك : انهضوا من مجالسكم وتراجعوا للتوسعة على الجالسين ، وقيل : انهضوا إلى الصلاة أو الجهاد أو عمل الخير .

وإن الباعث للمسلمين على القرب من رسول الله هو الرغبة في مزيد من الإيمان والعلم ، ولذا بيّن الله منزلة العلم والإيمان بقوله : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الذين آمنوا مِنْكُم والَّذين أُوتوا العِلمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أي يرفعهم درجات في الثواب في الآخرة ، والكرامة في الدنيا ، فيرفع الله المؤمن على غير المؤمن، والعالم على غير العالم، وهذه منزلة للمؤمنين والعلماء لا توازيها منزلة ، وثناء من الله على العلماء لا نجده في كتاب سماوي غير القرآن .

وفي الآية أيضاً إشارة إلى أن ما يتفاخر به الناس من جاه وغنى ونسب لا قيمة له عند الله ، وأنه لا يرفع الإنسان إلاّ أمران : الإيمان والعلم .

والعلم الذي يدعو إليه الإسلام هو كل علم سواء أكان في الشؤون الدينية أم الدنيوية ، فالعلم يبصّر الإنسان بعظمة الخالق ، ولذا جاء في القرآن : ﴿ إنَّما يخشى اللَّهَ مِنْ عِبادِه العُلماءُ ﴾ فاطر : ٢٨ . كما أن استخدام حقائق العلم يؤدي إلى رفع شأن المسلمين ، ودفع الضرر عنهم . ولذا جاء في القرآن أيضاً : ﴿ هَلْ يَسْتَوي الذين يَعْلَمُون والَّذين لا يَعْلَمُون ﴾ الزمر : ٩ .

ثم ينتقل القرآن إلى تعليم المسلمين أدب الحديث مع رسول الله ، وعدم تضييع وقته الثمين سدى ، فاشترط قبل مناجاة النبي تقديم صدقة :

﴿ يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِن لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ذلك خيْرٌ لكم وَأَطْهَرُ ﴾ أي ذلك التصدق خير لكم لما فيه من الثواب ، وأطهر لنفوسكم من رذيلة البخل . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي فإن لم تجدوا مالاً لتتصدقوا به ، فقد أجاز لكم سبحانه المناجاة في الأمور الهامة بدون تقديم صدقة .

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية أن بعض من أسلموا أكثروا من مناجاة النبي ﷺ من غير حاجة إلاّ لتظهر منزلتهم ، وكان الأغنياء بحكم مراكزهم يكثرون من ذلك ويغلبون الفقراء على القرب من النبي حتى شغلوا أوقاته ، التي يجب أن تكون موزعة على ما تقتضيه المصلحة العامة ، وكان النبي يؤذيه ذلك ، ولكن يغلبه الحياء عن صد الناس عنه .

ولهذا التكليف بتقديم صدقة قبل مناجاة النبي ﷺ حِكَمٌ شتى : منها ، تخفيف التزاحم عليه من غير حاجة ، ومنها : نفع الفقراء . ومنها : التمييز بين المخلص والمنافق .

وعندما استقر في نفوس المسلمين كمال الأدب مع النبي وتحقق الغرض المطلوب خفف الله سبحانه عنهم بقوله :

﴿ أَأَشْفَقْتُم أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَاتٍ ، فإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَليكم ، فَأَقيموا الصَّلاَةَ وَآتوا الزكاةَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

والمعنى : هل شق عليكم وخفتم من استمرار وجوب الصدقة عليكم قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهَ عَلَيْكُم ﴾ فإذا لم تفعلوا

ما أُمرتم به وَصَعُبَ ذلك عليكم ، عفا الله عنكم بأن رخّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فاستعيضوا عن الصدقة بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة على كل مسلم ﴿ وأطيعوا اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ في جميع الأوامر الصادرة منهما ، والله خبير بما تعملون فيجازيكم عليه .

وهكذا نسخ الله في هذه الآية وجوب الصدقة عند مناجاة الرسول .

ثم يتحدث القرآن عن قوم من المنافقين يظهرون الود للمؤمنين ويضمرون الحب لليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ، مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

لقد كان المنافقون يتخذون من اليهود أولياء أي نصراء وأصدقاء ، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ مَا هُمْ مِنْكُم وَلاَ مِنْهُم ﴾ أي أن هؤلاء المنافقين ليسوا منكم أيها المؤمنون ، وليسوا من اليهود ، بل هم كما وصفهم القرآن في موضع آخر : ﴿ مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ وهم ﴿ يَحْلِفُون عَلَى الكذب ﴾ أي يحلفون كذباً بأنهم مسلمون وأنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود ﴿ وهم يعلمون ﴾ بأنهم يحلفون كذباً ، ولقد أعد الله لهؤلاء المنافقين عذاباً شديداً جزاء نفاقهم ﴿ إنّهم سَاءَ ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بئس ما كانوا يعملون بغشهم المسلمين ونصحهم لأعدائهم من اليهود .

والغاية من الحلف لهؤلاء المنافقين يبينها القرآن بقوله :

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

وأيْمانهم جمع يمين وهو القسم ، ولقد كان قسمهم ﴿ جُنَّةً ﴾ أي وقاية وستراً يدفعون بهذا القسم عن أنفسهم القتل والأذى من المسلمين جزاء خيانتهم ونفاقهم ، وقد كان شغلهم الشاغل صرف الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات حوله .

ويبين الله مصير هؤلاء المنافقين بقوله :

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ ﴾ .

فهؤلاء لن تصرف وتكف عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً وهم أهل النار خالدين فيها أبداً .

ثم تصورهم الآية التالية يوم القيامة في حالة ذليلة حيث تفتضح حقيقتهم ، فهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس ظناً منهم أن الله لا يعرف خفايا صدورهم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَميعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسبُون أَنَّهُمْ عَلَى شَيءٍ ، أَلَا إِنَّهم هُمُ الكاذِبُونَ ﴾ .

فالله سبحانه ﴿ يَبْعَثُهُمْ ﴾ أي يحييهم بعد موتهم يوم القيامة فيحلفون لربهم كما كانوا يحلفون للمؤمنين ﴿ وَيَحْسَبُون أَنَّهم عَلَى شَيءٍ ﴾ ويحسب المنافقون بذلك الحلف الكاذب بأنهم على شيء مما يجلب نفعاً أو ضراً كما كانوا عليه في الدنيا ﴿ أَلَا إِنَّهُم هُمُ الكاذبون ﴾ أي البالغون في الكذب غاية ليس بعدها غاية ، فالله سبحانه عليم بأسرار القلوب لا يروج عليه الكذب .

ويكشف الله عن سبب سلوك المنافقين بقوله :

﴿ إسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

أي استولى عليهم الشيطان ، وغلب على عقولهم بوسوسته وتزيينه الشر لهم حتى اتبعوه ، فأنساهم ذكر الله وعبادته ، فغفلوا عن طاعته وتركوا أوامره ، فهم بذلك ﴿ حِزْبُ الشَّيْطان ﴾ أي اتباعه وأنصاره الذين اتخذوا الشرّ طريقاً لهم .

ثم تنتقل الآيات إلى كشف مصير هؤلاء المنافقين ، وأن اعتمادهم على اليهود كقوة يستندون إليها لن يجديهم نفعاً ، فالله يقرر أنهم وحلفاءهم في جانب المغلوبين الأذلين وأن الغلبة لله ولرسوله وللمؤمنين :

﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسولَه أولئك في الأَذَلِّينَ . كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

فالذين ﴿ يُحادُّون الله وَرَسولَه ﴾ أي يعادون وينازعون الله ورسوله ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي من جملة من كتب الله عليهم الذلة والشقاء في الدنيا والآخرة ، لأن العزة والنصرة هي للذين يسيرون على هدى الله ، وينصرون دينه ، والنصر دائماً لدين الله كما قال سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلي ﴾ وهذا وعد إلّهي ونبأ غيبي قد تحقق ، فالله نصر رسوله محمداً على أعدائه ، وَنَصَرَ دينه أمام كل جحافل الكفر .

وأخيراً يختم الله هذه السورة بالثناء على المؤمنين الذين يستعلون بإيمانهم ويجعلونه النسب ، والعقيدة الغالية التي يستميتون في سبيلها ، فيحجبون مودتهم عن أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليهم نسباً :

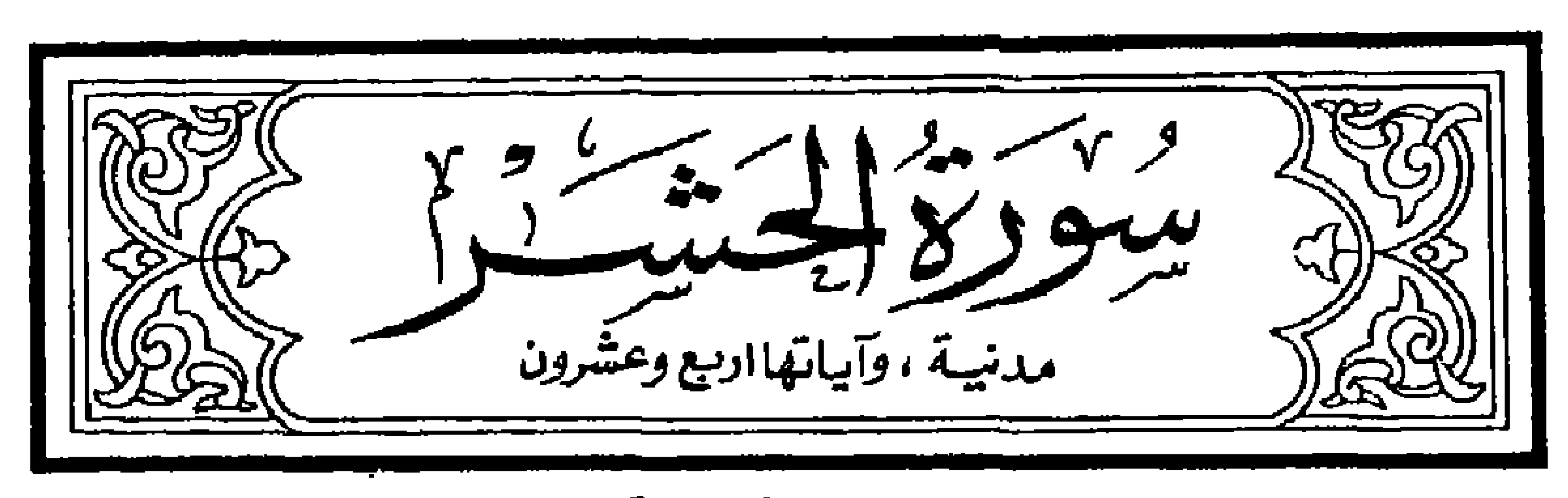
﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،

وَلَوْ كَانوا آباءَهُمْ أَوْ أَبناءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أولئك كَتَبَ في قُلُوبهم الإيمانَ ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالدين فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولئك حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحونَ ﴾ .

أي لا ينبغي للمؤمنين بالله واليوم الآخر أن يحبوا ويصادقوا الذين يعادون الله ورسوله ، ولو كانوا أقرب الناس إليهم نسباً ، فما كانت العقيدة الصحيحة تحتمل المداراة والحل الوسط في نظر الإسلام ، بل هي الشغل الشاغل للمؤمن بها يحيا ، وبها يجاهد ، وبها يستشهد .

فالقرابة وغيرها من الروابط المتعارف عليها لدى البشر تتلاشى عند حدود الإيمان ولا يبقى لها أي ظل أو أثر في نفوس المؤمنين ، ولقد وعى المؤمنون الأولون هذه الحقيقة فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه الكافر يوم غزوة أُحُد ، وهمّ أبو بكر بقتل ابنه يوم غزوة بدر بدعوته إلى المبارزة ، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير يوم بدر .

هؤلاء المؤمنون وأمثالهم ﴿ كَتَبَ في قلوبهم الإيمان ﴾ أي جعله الله في قلوبهم وثبّته ، كما أنه سبحانه ﴿ أيَّدهم برُوح منه ﴾ أي قواهم بنصر منه على عدوهم ، وقيل : برحمة منه أو نور منه وهدى ، كما أنه سبحانه خصهم بالنعيم الدائم في الآخرة ، وزيادة على ذلك ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْه ﴾ لقد رضي الله عنهم وقبل أعمالهم لأنهم أخلصوا له وحده وأطاعوه في الدنيا وقدموا حياتهم فداء له ، وهم رضوا عنه بما أثابهم من الثواب والنعيم ، فهؤلاء هم حزب الله وهو الحزب الفائز في هذه الحياة الدنيا ، كما أنه هو الحزب الفائز في الآخرة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ
أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ اللَّهُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ

شرح المفردات

سَبَّحَ لِلّٰه : مَجّد الله وعظّمه ونَزَّهه عن السوء وصلى له .

كفروا من أهْلِ الكتاب : هم يهود بني النضير .

الحشْر : الجلاء والإخراج عن الأوطان .

فأتاهم الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا : أتاهم عذاب الله من حيث لم يخطر ببالهم .

قَذَفَ في قلوبهم الرُّعْب : ألقى في قلوبهم الخوف الشديد .

المعنى الاجمالي

نَزَّهَ الله عما لا يليق به ، ومجّده كلّ ما في السماوات وما في الأرض ، وهو القوي الغالب كل شيء ، الحكيم في أفعاله . وهو الذي أجلى الكفار من يهود بني النضير من بلدهم عند أول إخراج لهم من جزيرة العرب ، ما ظننتم ـ أيها المسلمون ـ أن يجلوا ويتركوا مساكنهم وذلك لقوتهم ومناعة حصونهم ، وظن بنو النضيرأن حصونهم تمنع عنهم عذاب الله ، ولكن أمر الله وعذابه أتاهم من حيث لم يخطر لهم ببال ، فألقى الله في قلوبهم الفزع الشديد ، وأحسوا بالهزيمة ، فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم من الداخل حتى لا ينتفع بها المؤمنون ، كما

وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ
ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤
مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ

شرح المفردات

فاعتبروا يا أولي الأبصار : اتعظوا يا أصحاب النظر الواعي .

الجلاء : الخروج من الديار مع الأهل .

شَاقُّوا : خالفوا وعادوا .

لِينَةٍ : نخلة .

تركتموها قائمة على أصولها : أبقيتم عليها فلم تقطعوها .

لِيُخزي الفاسقين : ليذل الله الخارجين عن طاعته .

أَفَاءَ : الفيء ما أُخذ من الكفار من الغنائم بلا حرب .

أوجَفْتم : أسرعتم في السير .

تابع المعنى الإجمالي

خرب المؤمنون بيوتهم من الخارج بسبب اقتحامهم لها ، فاتعظوا يا أصحاب النظر السديد بما نزل ببني النضير من الذل والتشريد .

ولولا أن قضى الله عليهم الإخراج من وطنهم لعذبهم بما هو أشد من الإخراج وهو القتل والأسر ، ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك لأنهم خالفوا أمر الله ورسوله ، ومن يخالف أمر الله فلن ينجو من عقابه الشديد .

ما قطعتم ـ أيها المسلمون ـ من نخلة من أشجار بني النضير ، أو تركتموها على ما كانت عليه بدون قطع ، فإن ذلك كان بأمر الله ، ولا حرج عليكم فيه ، والله يهين ويذل الخارجين عن طاعته .

مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ
دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ
عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ

شرح المفردات

مِن خَيْلٍ ولا ركاب : راكبين الخيل والإبل .

يُسَلِّط رُسُله : يمكنهم من أعدائه بالقهر والغلبة .

من أهل القرى : من أموال الكفار كبني النضير وبني قريظة .

ولذي القربى : أقارب النبي ﷺ .

ابن السبيل : المسافر الذي فقد ماله فعجز عن الوصول إلى بلده .

دُولةً بين الأغنياء منكم : متداولاً بين أغنيائكم .

وما أتاكم الرسول فخذوه : ما أمركم به محمد ﷺ فتقبلوه ممتثلين للأمر .

تابع المعنى الإجمالي

وما أفاء الله على رسوله محمد وأعطاه من أموال بني النضير فإنه حصل بدون مشقة ، فلم يَجْهد المسلمون لتحصيله ، ولم يقطعوا المسافات الطويلة بواسطة الخيل والإبل ، ولكن كان ذلك بنصر من الله ، إنه سبحانه يقهر من يشاء بواسطة رسله ، وهو القادر على كل شيء .

وما أفاء الله على رسوله وأعطاه من أموال أهل القرى كبني النضير وغيرهم ممن غنموا منهم دون قتال ، فهذه الأموال هي : لله ، وللرسول ، وأقارب الرسول ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل وهو المنقطع في سفره عن أهله وليس له مال يوصله إليهم، فهذه الأموال توزع على هذه الوجوه حتى لا يكون المال متداولاً بين الأغنياء منكم خاصة ، وما جاءكم به الرسول محمد من الأحكام

ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا
وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ
وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

شَـرح المفـردَات

يَبْتَغُون فَضْلاً من الله وَرضواناً : يطلبون رزقاً من الله وثواباً منه .

والذين تبوءوا الدار : الذين استوطنوا المدينة المنورة وهم الأنصار .

والإيمان : أي اخلصوا الإيمان وألزموا أنفسهم به .

حاجة : حسداً وحقداً .

مما أُوتوا : مما أعطي المهاجرون من أموال الفيء .

ويُؤثِرون على أنفسهم : يفضلون غيرهم على أنفسهم .

خصَاصَة : فقر وحاجة .

تـابع المعـنى الاجمالي

فاتبعوه ، وما نهاكم عنه فاتركوه ، واجعلوا لكم وقاية من غضب الله وذلك بامتثالكم لأوامر نبيكم إن الله شديد العقاب .

فأموال الفيء صُرفت على هؤلاء الفقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من أوطانهم وترك أموالهم ، فهاجروا إلى المدينة المنورة طلباً للرزق ونيلاً لثواب الله ونصرة لـه ولرسوله ، فأولئك هم الصادقون في إيمانهم .

والأنصار الذين كانوا مقيمين بالمدينة المنورة ، وأخلصوا الإيمان من قبل مجيء المكيين مهاجرين إليها ، يحبون هؤلاء المهاجرين ، ولا يحسدونهم على ما خصهم النبي من أموال الفيء ، وفوق ذلك فإن هؤلاء الأنصار يفضلون المهاجرين على أنفسهم ولو كانوا محتاجين إلى المال ، ومن يَصُنْ نفسه من

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ
فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن

شَرح المفردات

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ : يحمي نفسه ويحفظها من البخل .

المفلحون : الفائزون بكل خير .

غِلًّا : حقداً .

نافقوا : أظهروا الإيمان وأضمروا الكفر .

تابع المعنى الإجمالي

البخل الشديد فأولئك هم الفائزون .

والمؤمنون الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار جيلاً بعد جيل يقولون : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وذنوب إخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا حقداً للذين آمنوا ، ربنا إنك بالغ الرأفة والرحمة .

ألم تعلم يا محمد بخبر هؤلاء المنافقين الذين يقولون لإخوانهم في الكفر من يهود بني النضير : لئن أخرجكم محمد من دياركم لنخرجن معكم ، ولا نطيع أحداً أبداً يأمرنا بقتالكم أو التخلي عنكم ، وإذا قاتلكم أحد سنهبُّ لنصرتكم ، إنهم قالوا ذلك ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . لئن أُجلي اليهود لن يخرج المنافقون معهم ، وإن قاتل المسلمون اليهود لن يمد لهم المنافقون يد النصرة ،

قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ
﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ
جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ

شَرح المفردَات

لَيُوَلُّنَّ الأدبار : ينهزمون ويفرون .

لا يفقهون : لا يفهمون مقدار عظمة الله .

جُدُر : جمع جدار وهو الحائط أو السور .

بأسهُم : البأس : القوة والشدة ويطلق البأس على الحرب كما يطلق على العذاب .

تحسَبُهُمْ جميعاً : تظنهم مجتمعين على الأُلفة والمحبة .

قلوبهم شتى : قلوبهم متفرقة مختلفة .

وَبَالَ أمرهم : سوء عاقبة كفرهم .

تابع المعنى الإجمالي

ولئن خرجوا معهم لينصروهم فإنهم عاجزون عن نصرهم ، فسوف يفرون منهزمين أمام المسلمين . أنتم أيها المسلمون أشد رهبة في صدور اليهود والمنافقين من الله عز وجل ، وسبب خوفهم هذا أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله .

لا يقاتلكم اليهود مجتمعين إلّا في قرى محصّنة أو من وراء جدران يستترون بها ، إذا انفردوا نسبوا إلى أنفسهم الشدة والبأس ، وإذا خرجوا إليكم فهم جبناء ، تظنهم مجتمعين على أمر ورأي ، ولكن قلوبهم متفرقة مختلفة ، وهم بهذا لا يعقلون ما يضرهم وما ينفعهم .

مثل بني النضير كمثل الذين كفروا من قبلهم ، فقد ذاقوا منذ زمن قريب عاقبة

أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ
فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ
عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ

شرح المفردات

اتقوا الله : خافوه واتقوا عقابه بترك المحظورات .

ما قدَّمت لِغَدٍ : ما قدَّمت من الأعمال ليوم القيامة .

الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله .

نسوا الله : تركوا أوامره .

تابع المعنى الإجمالي

كفرهم ولهم في الآخرة عذاب شديد مؤلم . ومثل المنافقين في إغرائهم بني النضير ـ بالتمرد على رسول الله ـ كمثل الشيطان حين أغرى الإنسان بالكفر ، فلما كفر قال الشيطان : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان جزاء الشيطان وجزاء ذلك الإنسان : العذاب في النار خالدين فيها ، وهذا جزاء المعتدين المتجاوزين لحدود الله .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا عقاب الله بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه ، ولينظر أحدكم أي شيء قدم لنفسه من الأعمال ليوم الغد الذي ينتظره وهو يوم القيامة ، واتقوا الله بالعمل بأوامره وترك نواهيه ، إنه خبير بما تعملون . ولا تكونوا مثل الذين نسوا الله فتركوا ما أمرهم به من الطاعات ، فأنساهم الله أن يعملوا لأنفسهم ما ينجيهم من العقاب ، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله . وبطبيعة

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ
خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ

شَرح المفـردَات

لا يستوي : لا يتساوى .

أصحاب النار : العصاة الذين يستحقون دخول النار .

خاشعاً : خاضعاً ذليلاً .

مُتصدِّعاً : متشققاً .

عَالِمُ الغَيْبِ والشهادة : يعلم ما غاب عن المخلوقين وما شاهدوه .

الرحمن : هذا الاسم وما بعده من أسماء الله ، والرحمن الذي وسع كل شيء رحمة .

الرحيم : الذي كثرت رحمته .

تابع المعنى الإجمالي

الحال لا يتساوى أصحاب النار المعذبون ، وأصحاب الجنة المنعمون في الآخرة ، فالقضية واضحة ، أصحاب الجنة هم الفائزون بكل ما يحبون .

لو أنزل الله هذا القرآن على جبل لرأيته خاضعاً ذليلاً متشققاً من خشية الله وتلك الأمثال يعرضها الله للناس ليتدبروا القرآن ، وينتفعوا بهديه .

هو الله الذي لا معبود بحق إلّا هو وحده ، عالم بما غاب عن حواس الناس وعالم بما هو تحت الحواس مما يشاهدون ويشعرون ، وهو الرحمن المنعم بجلائل النعم الرحيم المنعم بدقائقها .

ثم ذكر الله بعض أسمائه الحسنى أوردنا معناها في شرح المفردات .

ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

شــرح المفــردات

المَلِكُ : المالك كل شيء .

القدُّوسُ : الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص .

السَّلامُ : السالم من النقص والعيب والفناء .

المؤمن : المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم .

المهيْمِن : المسيطر الرقيب على كل شيء .

العَزيزُ : القوي الغالب كل شيء .

الجبَّار : العظيم المتعالي الذي لا يدانيه شيء ، وقيل : مصلح الأمور ومقومها .

المتكبِّر : المبالغ في الكبرياء والعظمة .

الخالق : المبتدىء للخلق والمكون لهم من العدم .

البارىء : الذي خلق الخلق لا عن مثال .

المصوِّر : هو الذي صوّر الموجودات بأشكال مختلفة حسب تقديره .

له الأسماء الحسنى : له الأسماء الدالة على محاسن المعاني .

سُورَةُ الحَشْرِ

ايضــاح و دروس

كان اليهود في بدء الدعوة الإسلامية يسكنون في مدينة يثرب (المدينة المنورة) وفي خيبر وفدك وغيرها من المدن .

والنبي محمد ﷺ بعد هجرته من مكة إلى يثرب أصبح مجاوراً لليهود الذين كانوا يسكنون بعض أحيائها وضواحيها ، وكان فيها ثلاث طوائف هم : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وهذه السورة تحكي قصة إجلاء بني النضير عن يثرب .

رُوي أن بني النضير صالحوا رسول الله على ألّا يحاربوه ولا يؤذوه ، ولا يكونوا عوناً لأعدائه عليه ، فلما انتصر الرسول في غزوة بدر قالوا : هذا هو النبي الذي جاء وصفه في التوراة لا تُرد له راية ، فلما هزم المسلمون في غزوة أُحُد ارتابوا ، ونكثوا العهد مع رسول الله ، فقد خرج زعيمهم كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا قريشاً ضد النبي . فأخبره الملك جبريل بذلك ، يضاف إلى ذلك أن كعباً هذا سبق أن هجا النبي ﷺ هجاء مراً مما حمل النبي أن يأذن لأحد رجاله محمد بن سلمة بقتل كعب فقتله ، وهذا مما أثّر في معنويات بني النضير .

وكان النبي ﷺ قد اطلع منهم على خيانة ، فقد ذهب إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما أحد أتباعه وهو عمرو بن أمية الصخري ليدفع الدية إلى أهلهما بموجب العهد الذي بينه وبينهم ، وبينما رسول الله جالس إلى جنب جدار من بيوتهم خلا اليهود بعضهم ببعض وهمّوا بالغدر به بإلقاء صخرة عليه من فوق أحد البيوت ، فجاءه الخبر من السماء

فقام لتوه راجعاً إلى المدينة ولحق به أصحابه .

أمام هذا الغدر من اليهود ، قرر النبي ﷺ محاربتهم ، وأمر بالتعبئة والمسير إليهم بعد أن نقضوا العهد وظهرت منهم الخيانة ، مصداقاً للآية الكريمة ﴿ وإمَّا تخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فانْبِذْ إليهم على سَوَاءٍ إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الخَائِنينَ ﴾ الأنفال : ٥٨ . فلما نزل بهم تحصنوا بالحصون فوجه إليهم الإنذار بأن يخرجوا من حصونهم وينزحوا عن يثرب في مدة عشرة أيام ، ولكنهم رفضوا الإذعان لهذا الإنذار أول الأمر ، ثم لما تبين لهم أنهم عاجزون عن مقاومة الرسول ﷺ قرروا الإذعان لحكم الرسول ورضوا بالجلاء عن يثرب ، ولكن جماعة من المنافقين من بني عوف بعثوا إليهم : « أن اثبتوا وتمنّعوا فإنَّا لَنْ نُسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا » .

وكانت حصون بني النضير قوية متينة جداً وكان من المحال فتحها في مدة وجيزة فاحتموا خلفها ، لذلك أمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم وحرقه ، وكان هذا سبباً في تسرّب اليأس إلى قلوب اليهود إذ وجدوا أنفسهم بين أمرين : إمَّا الإذعان لحكم النبي ، وإما الخروج من تحصيناتهم لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق النخيل ، وكانت ثمارها من أهم مرافق الحياة عندهم ، فاختاروا الإذعان لحكم الرسول ، ورضوا بالجلاء بعد أن حاصرهم النبي خمس عشرة ليلة ، فسألوا الرسول أن يأذن لهم بالجلاء ، على أن يكف عن دمائهم ، وعلى أن يأخذوا ما حملت الإبل من أموالهم إلاَّ الحلقة « أي السلاح » ففعل . . . فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

هذه قصة استسلام بني النضير وجلائهم عن ديارهم وهذا ما تعالجه هذه السورة التي تستهل ببيان عظمة الله سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

سبّح لله ، معناها : مجَّد وعظَّم ونزَّه الله وبرأه عن السوء والنقصان ، فجميع الخلائق الموجودة في السماوات والأرض تُنَزِّه الله سبحانه عما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله ، وتدل على أنه الواحد الأحد المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرأ عن سمات النقصان .

وإذا كان كل شيء في هذا الوجود يمجد الله ، والجميع في قبضته ومسخّر لإرادته ، فإن الله لا يعجزه إخراج فئة من الذين كفروا من ديارهم وهم بنو النضير الذين قال الله فيهم بعد مطلع السورة :

﴿ هُوَ الَّذي أَخْرَجَ الّذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْديهِم وَأَيْدي المؤمِنِينَ فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبْصَارِ ﴾ .

فالذين كفروا من أهل الكتاب هم بنو النضير ، فقد أخرجهم الله ﴿ لأوَّل الحَشْر ﴾ والحشر إخراج الجمع من مكان إلى مكان ، فبنو النضير هم أول من أُجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب ، والحشر يأتي بمعنى الجمع أي أنه سبحانه أخرجهم من ديارهم لأول جمعهم لمقاتلة المسلمين أو ما جمع من المسلمين لقتالهم .

ويخاطب الله المؤمنين بقوله : ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من ديارهم مهزومين لِمَا كانوا عليه من قوة ومنعة ، وتحصينات أقاموها في أحيائهم ، ولا ظن بنو النضير أن يخرجوا اعتقاداً منهم أن حصونهم تمنع عنهم الهزيمة وعذاب الله ، ولكن أمر الله وعذابه أتاهم من حيث لم يخطر

لهم ببال ، فقذف الله الهلع والخوف في قلوبهم حين حاصرهم النبي وأحرق نخيلهم ، فصاروا ﴿ يُخربونَ بُيُوتَهُم بأيديهم ﴾ حتى لا تقع سليمة في أيدي المسلمين ، كما أخذ المؤمنون يخربون بيوتهم من الخارج بما رشقوهم من السلاح ، ويختم الله قوله : ﴿ فاعتبروا يا أُولي الأبْصَار ﴾ أي فاتعظوا يا أصحاب العقول وتأملوا في مصير هؤلاء الذين ساقهم كفرهم وغدرهم إلى تلك الهزيمة النكراء .

ثم بين الله أن ما كتبه عليهم من الجلاء أي الانتقال من بلدة إلى أخرى كان أخف من القتل والأسر الذي كتبه على سواهم :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ في الدُّنْيا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ .

كما بيَّن اللَّهُ السبب في استحقاقهم هذا العذاب وإجلائهم عن وطنهم بقوله :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ .

أي أنهم عادوا الله ورسوله وخالفوا أوامرهما ، ومن يعادي الله فإن الله شديد العقاب .

وفي أثناء الحصار قطع المسلمون بعض نخيل هؤلاء اليهود وتركوا بعضه ، فنادى اليهود النبي ﷺ : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه ، أفمن الصلاح قطع النخيل ؟ فشق ذلك على النبي ، وحزن المسلمون في قرارة أنفسهم مما سمعوه ، وخشوا أن يكون قطع النخيل فساداً واختلفوا في ذلك ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ أو تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ ﴾ .

هذه الآية جاءت مطمئنة للقلوب وبأن ما وقع من قطع بعض النخيل وترك الآخر قائماً كان بإذن الله وإرادته لا فساداً في الأرض بل إذلالاً لليهود الخارجين عن طاعة الله .

وبعد جلاء اليهود يقرّر الله حكم الفيء ، وهي الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بلا قتال .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرسُولِ وَلِذِي القُربى وَاليَتَامى والمَسَاكين وَابْنِ السَّبيل كي لا يكونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغنياءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إنَّ الله شَديدُ العِقَابِ ﴾ .

فالفيء هو ما حصل عليه المسلمون من أموال العدو بدون مشقة القتال[١] ﴿ فَمَا أَوجَفْتُم عَلَيْهِ من خيل ولا ركاب ﴾ أي فلم تسرعوا للحصول عليه راكبين الخيل والإبل ولا تحملتم له مشقة الحرب ، وقد اعتبرت الآية أن ما أخذه المسلمون من أموال بني النضير فيئاً ، فقد كانوا على بعد ميلين من المدينة واستسلموا للنبي ﷺ .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي ولكن الله تعالى يمكّن رسله ويجعل لهم الغلبة على من يشاء ممن يعادون دينه وهذا ما مكّن الله رسوله محمداً

---

(١) أما ما يحصل عليه المسلمون في القتال فهو غنيمة يأخذ المحاربون أربعة أخماسها والخمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل .

من بني النضير فقهرهم واستولى على أموالهم ﴿ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ والله قادر على كل شيء لا يعجزه شيء .

أما هذا الفيء فهو يقسم على الوجوه التالية :

﴿ للهِ ﴾ أي يصرف فيما يرضيه سبحانه من مصالح الدين العامة كالدعوة إلى الإسلام ، وعمارة الكعبة وكسوتها وسائر المساجد وإقامة شعائره تعالى .

﴿ ولِلرَّسُول ﴾ يأخذ كفايته من مال الفيء له ولعياله بصفته إمام المسلمين ورئيسهم ، وبعد وفاته تصرف حصته على الأئمة ، وقيل على المقاتلين ، وقيل على مصالح المسلمين ..

﴿ وَلِذِي القُربى ﴾ أي أقرب الأهل إلى النبي نسباً وولاء ، وهم الذين حرمت عليهم الصدقة كما حرمت عليه تكريماً له . وقد خصَّ النبي ﷺ ذلك ببني هاشم وبني المطلب .

﴿ واليَتَامَى ﴾ جمع يتيم وهو من فقد أباه دون البلوغ وكان فقير الحال .

﴿ والمساكين ﴾ جمع مسكين وهو السائل ، وقيل الذي لا مال له يكفيه .

﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع الذي لا يجد مالاً يوصله إلى وطنه .

علل القرآن الحكمة من القسمة على هؤلاء بقوله : ﴿ كَيْ لا يكونَ دُولةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنْكُم ﴾ أي كي لا تكون أموال الفيء متداولة بين الأغنياء

منكم دون سواهم .

هذا النص القرآني يُبرز قاعدة من أمهات القواعد التي يقوم عليها الاقتصاد الإسلامي ، وهي أن يكون المال متداولاً بين أفراد الشعب عامة ، لا بين الأغنياء خاصة ، فكل وضع اقتصادي يجعل المال محصور التداول بين الأغنياء ، ممنوعاً من التداول بين الفقراء ، هو وضع يكرهه الإسلام ، وعلى هذا فجميع القوانين وأصول المعاملات الاقتصادية التي لم ينصَّ عليها القرآن والسنة يجب أن تلحظ هذه القاعدة القرآنية وتسير بموجبها ، فكل النظم السياسية المعاصرة التي قامت في العالم ، وعملت للحد من طغيان رأس المال ، قد سبق الإسلام إليها وقرر أصولها بهذه القاعدة الجليلة ، ولكن مع احترام الملكية الفردية ، ومراعاة العدالة الإجتماعية بتقرير الزكاة وتحريم الربا والاحتكار ، وعدم إثارة الصراع الطبقي بين الفقير والغني .

وبعد ذلك يأمر الله المسلمين بطاعة رسوله محمد ﷺ فيما جاء به وفيما ينهى عنه :

﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ .

وما أتى به الرسول محمد ﷺ يُعرف اليوم باسم « السُنّة » وهي كل ما ورد عن النبي من قول أو فعل أو تقرير ، وقد أجمع المسلمون على أن السُنّة متى ثبتت وصحت عن رسول الله كانت حجة في الدين ، ودليلاً من أدلة الأحكام يجب اتباعها ، والرجوع إليها ، والعمل بمقتضاها ، إتباعاً للآية الكريمة السابقة . فالسُنَّة النبوية بينت أحكام القرآن من : تفصيل المجمل ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق . فالقرآن أوجب الطهارة على من أراد الصلاة والسنّة فصلت ما في القرآن من إجمال .

والقرآن شرع الصلاة ، ولكنه لم يُبيّن صريحاً أعدادها ولا أعداد ركعاتها ، ولم يذكر أوقاتها إلاّ إجمالاً ، فجاءت السُنَّة وبينت كل ذلك قولاً وعملاً .
ودعا القرآن إلى إيتاء الزكاة ولكنه لم يبيِّن نِصابها بالتفصيل ولا المقدار الواجب إنفاقه فبينت السُنَّة كل ذلك .

ولما بيَّن الله مصارف الفيء وأن من ضمنها أقارب الرسول واليتامى والمساكين وابن السبيل ذكر أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلباً لرزق الله ، ونيلاً لثوابه ، وحباً في نصرة دينه ، فأولئك هم الصادقون في إيمانهم .

﴿ لِلْفُقَراء المهاجرين الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

ثم أثنى الله على الأنصار ساكني المدينة المنورة بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِم يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم وَلاَ يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئك هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ .

فالذين ﴿ تبوَّءُوا الدَّارَ والإِيمَان ﴾ هم الأنصار من سكان المدينة المنورة ، والمراد بالإيمان هنا : أي آثروا الإيمان وأخلصوا له ، وقيل : سمى الله المدينة المنورة بالإيمان لأن فيها ظهر الإيمان وقوي . ﴿ من قبلهم ﴾ أي من قبل المهاجرين الفقراء . فهؤلاء الأنصار يحبون أولئك المهاجرين الذين حلوا في ديارهم ﴿ ولا يَجِدُونَ في أنْفُسِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتوا ﴾ أي لا يجد هؤلاء الأنصار في قلوبهم حسداً لهؤلاء المهاجرين

الذين خصهم النبي ﷺ بأموال الفيء دونهم[١] كما أن هؤلاء الأنصار يُؤثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم ﴿ خصاصة ﴾ أي فقر وحاجة . وقد رُوي في شأن هذا الإيثار هذه الحادثة المؤثرة التي تدل على سمو النفس التي رباها الإسلام وصقلها بالإيمان والتضحية :

أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجَهْدُ[٢] . . . فقال النبي ﷺ : ألا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هذه الليلة يرحمه الله ، فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته : ضيفُ رسول الله لا تدّخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلّا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله فقال : لقد عجب الله أو ضحك من فلان وفلانة[٣] فأنزل الله : ﴿ وَيُؤْثِرونَ عَلَى أَنْفُسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وتأمل في قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ والشح هو البخل الشديد ، وقيل : الشح حرص النفس على ما ملكت والبخل به ، ومعنى النص القرآني أن الجماعة التي تتجنب البخل

---

(١) كان الأنصار قد استضافوا المهاجرين في مساكنهم فلما غنم النبي أموال بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم منازلهم وإشراكهم في أموالهم ثم قال : إن أحببت قسمت ما أفاء الله عليَّ من أموال بني النضير بينكم وبينهم ، والمهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم ، فقال بعض الأنصار بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون في منازلنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا ، فقال رسول الله : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأعطى رسول الله المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلّا ثلاثة من الفقراء .

(٢) الجهد : مشقة الجوع .

(٣) نسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية والمراد بهما : الرضى بصنيعهما . وهذا الحديث رواه البخاري .

هي الجماعة الفائزة في حياتها ، أو بكلام آخر أن البخل يؤدي إلى الخسران .

فالبخل يصيب المجتمع بأشد الكوارث والأضرار ، فهو يزرع الأحقاد في قلوب المحرومين نحو الأغنياء البخلاء ، مما يجعلهم يتحينون الفرص للتألب عليهم وتدمير ممتلكاتهم ، وقد بيّن النبي الآثار السيئة التي تترتب على البخل في حديث جامع :

« إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[١] .

وبعد أن بيّن القرآن المزية التي يتحلى بها الأنصار من محبة المهاجرين وإيثارهم إياهم على أنفسهم ، ذَكَرَ أن التابعين لهم بإحسان وهم المؤمنون الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ـ على مر العصور ـ إلى يوم القيامة يدعون بالغفران لأنفسهم ولمن سبقهم من المؤمنين ، كما يطلبون من الله بألّا يجعل في قلوبهم حقداً لهم :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذينَ سَبَقُونَا بالإيمانَ وَلاَ تَجْعَلْ في قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذينَ آمنوا رَبَّنا إنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

تتجلى في هذه الآية الكريمة الرابطة القوية التي تربط أول هذه الأمة بآخرها ، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن الميت بالخير والدعاء ، كما يذكر أخاه الحي الذي تربطه به رابطة الود والإيمان ، كما يتجلى من وراء ذلك أيضاً

(١) أخرجه الإمام مسلم .

مراد الله من الأمة الإسلامية بأن تكون كتلة واحدة متراصة ، لا يعتريها تفرقة ولا خلاف ولا شتم ولا طعن .

فالله سبحانه إذ أمر المؤمنين بالاستغفار لمن سبقهم من المؤمنين وعدم إضمار الحقد لهم فيدخل في ذلك صحابة رسول الله بالدرجة الأولى لكونهم أشرف المؤمنين ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم فقد خالف أمر الله في ذلك ، فإن وُجِدَ في قلب المؤمن حقدٌ على بعضهم ، فقد حل به نصيب وافر من عصيان الله ، وبالأخص إذا صاحب الحقد الشتم والطعن .

ثم يعود القرآن فيذكر ما جرى بين المنافقين واليهود حين وعد المنافقون اليهود بأن ينصروهم ثم نكثوا العهد .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نَافَقُوا يَقُولونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذين كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ : لَئِنْ أُخرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكم أَحَداً أَبَداً وإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

هذه الآية تذكر فريقاً آخر اشترك في هذه المعركة مع اليهود ، ولكنه لم يكن اشتراكاً عملياً بل اقتصر على الكلام والوعد الكاذب : إنهم فريق من المنافقين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر وتحيّنوا الفرصة للنيل من المسلمين ، وقد فضحهم الله هنا وكشف عن مؤامراتهم ، ووصفهم بصفة النفاق وربط بينهم وبين الكفار من اليهود برباط الأخوة . لقد عاهدوا اليهود على الخروج معهم إن أُخرجوا من المدينة ، وأن لا يطيعوا أمر محمد في قتالهم وإن قاتلهم أحد سيهبون لنصرتهم . ولكن الله يشهد أن المنافقين لكاذبون فيما وعدوا به اليهود .

ثم أخبر القرآن بأن المنافقين سينكثون العهد مع اليهود :

﴿ لَئِنْ أُخرِجُوا لا يَخرجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرونَهُم وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُون ﴾ .

فالله سبحانه يقول : لئن أُخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ولئن قُوتِلَ اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم ، ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم فسوف ينهزمون ، ثم لا ينصر الله اليهود على محمد ﷺ وأصحابه بل يخذلهم .

وهذا نبأ غيبي تحقق بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية مما يشهد بصحة نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلّهي ، فاليهود أُخرجوا فلم يخرج المنافقون معهم ، وقوتلوا من قِبَلِ محمد وصحبه فلم ينصرهم المنافقون ، وكانت شهادة الله بالمنافقين بأنهم كاذبون شهادة حق ، ومن أصدق من الله شهادة .

ثم يكتشف القرآن حقيقة نفوس هؤلاء اليهود والمنافقين ، وما تنطوي عليه من جبن .

﴿ لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ .

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله ، ولو خافوا الله لم يرهبوا أحداً من عباده ، فهم لا يخافون الله لأنهم لا يفهمون عظمته .

كما يبين القرآن حقيقة جديدة تنبثق عن الحقيقة السابقة ، وأنه نتيجة لجبنهم لا يقاتلون المسلمين مواجهة :

﴿ لا يُقَاتِلونَكُمْ جَمِيعاً إلاَّ في قُرًى مُحَصَّنَة أو مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُم شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فهم لا يقاتلون المسلمين وجهاً لوجه ، بل في قرى محصنة ، أو من وراء جدران يستترون بها ، وفي هذا إشارة إلى جبنهم وأن الشجاعة تنقصهم عند منازلة المسلمين وجهاً لوجه . ﴿ بأسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ عداوتهم أو قوتهم فيما بينهم شديدة فإذا لاقوكم جبنوا ﴿ تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم شَتَّى ﴾ أي تظن أن هؤلاء اليهود والمنافقين مؤتلفة قلوبهم مجتمعة كلمتهم ، ولكن قلوبهم متفرقة مختلفة .

هذا النص القرآني علل سبب هزيمة يهود بني النضير والمنافقين، ويسري هذا السبب إلى غيرهم من كل جنس وفي كل عصر ، فتنهزم كل أمة في الأرض عندما تتفرق قلوب أبنائها ، وتتشعب ميولهم ، وتكثر أحزابهم وشعاراتهم، فالأمة لا تكون قوية إلّا باتحاد قلوب أبنائها ، ووحدة أهدافهم، وتأمل كيف عقّب الله على ذلك ﴿ ذَلِكَ بِأَنهم قَوْمٌ لَا يَعْقِلُون ﴾ فهذا بيان بأن تشتت القلوب ، وتشعب الميول المؤدي إلى الضعف والضياع والهزيمة إنما ينشأ من عدم النضج السياسي ، وانعدام العقل عند الشعب بسبب عدم إدراكه لما يصلح حاله .

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه بما أصابهم من التهجير وذل الهزيمة بل سبقهم غيرهم من قريب إلى هذا العذاب جزاء كفرهم وهم كفار قريش يوم غزوة بدر وكذلك بني قينقاع .

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ ﴾ .

لقد لاقوا سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ولهم ، إضافة إلى ذلك ، عذاب أليم في الآخرة .

ويبيّن القرآن أن مَثَلَ بني النضير في تعاملهم مع المنافقين الذين

وعدوهم بالنصرة ثم خذلوهم ، كمثل الإنسان مع الشيطان الذي يستجيب لإغرائه فيكفر أو يضل فينتهي أمرهما إلى شرّ مصير .

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَال إِنِّي برِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا في النَّار خَالِدَينِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾ .

فعاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر هي الخلود في النار .

ثم ينتقل القرآن إلى نصح المؤمنين بلزوم تقوى الله والتزود للآخرة بالعمل الصالح :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يأمر الله المؤمنين بتقـواه ، وتقوى الله هي : خيفتـه ، واجتناب المعاصي التي تؤدي إلى عذابه ، كما يأمر الله المؤمنين بأن ينظروا ماذا قدّموا لآخرتهم من الأعمال الصالحة التي تنفعهم يوم الحساب ، وقد عبّر القرآن عن الآخرة بكلمة (غد) لدنوها ، أو لأن الدنيا كيوم يعيش فيها الإنسان والآخرة هي غده . ثم كرر الله الأمر بالتقوى بقوله ﴿ وَاتَّقُوا اللّه ﴾ لتنبيه المؤمنين إلى أهميتها وأنها الحد الفاصل بين النجاة والهلاك ، وبين السعادة والشقاء ، وهو سبحانه خبير بما يعمل الناس لا تخفى عليه خافية .

وينذر القرآن المعرضين عن ذكر الله بشرّ المصير :

﴿ ولا تكـونوا كـالـذين نَسُـوا اللَّهَ فَـأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِـكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ .

أي لا تكونوا أيها المؤمنون كالذين نسوا ذكر الله ، ولم يراعوا حقوقه ، فجعلهم ناسين حقوق أنفسهم ، حتى أنهم لا يسعون إلى ما ينفعهم ويخلصهم من العذاب . فالذي يذكر ربه يراقب نفسه دائماً في أعماله ، ويكون مسيطراً على نفسه ، موجهاً لها في السبل التي يرضاها الله ، أما الذي ينسى الله فينقاد إلى شهواته وأهوائه ، فيفقد السيطرة على نفسه ، وينسى أن يوجهها إلى الخير والفلاح فيكون من الذين وصفهم الله ﴿ أولئك هُمُ الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله المستحقون عقابه .

ثم إن الناس فئتان : فئة سلكت طريق الله فكان مصيرها الجنة ، وفئة سلكت طريق الشيطان فكان مصيرها النار ، ولا تتساوى هاتان الفئتان في المصير :

﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ .

وبعد ذلك يبين الله الأثر الذي يحدثه القرآن في أي شيء يتوجه إليه ولو كان أقسى شيء في عُرْفِ الناس معطياً بذلك مثلاً بالجبل ذي الصخور الصلبة :

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ لَعَلّهم يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أي لو أن الله أنزل هذا القرآن على جبل وألهم الجبل عقلاً وفهماً ، وتدبَّر ما في القرآن من عِظَات وَحِكَم لخضع وتشقق من خشية الله ، فكيف لا تلين قلوب البشر عند سماع آيات القرآن وهديه ، وتكون قلوبهم أشد قسوة من الحجارة . هذا المثل ضربه الله للناس ليتعظوا بما في القرآن من

مواعظ ، وليتفكروا بما فيه من هدى .

وأخيراً يختم الله هذه السورة بذكر بعض أسمائه الحسنى ذات الفعاليات المؤثرة في الإنسان وهي مؤلفة من ثلاثة مقاطع كل مقطع يبدأ بذكر التوحيد :

﴿ هُوَ اللَّهُ الذي لَا إِلَه إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُـوَ الرحمنُ الرَّحِيمُ ﴾ .

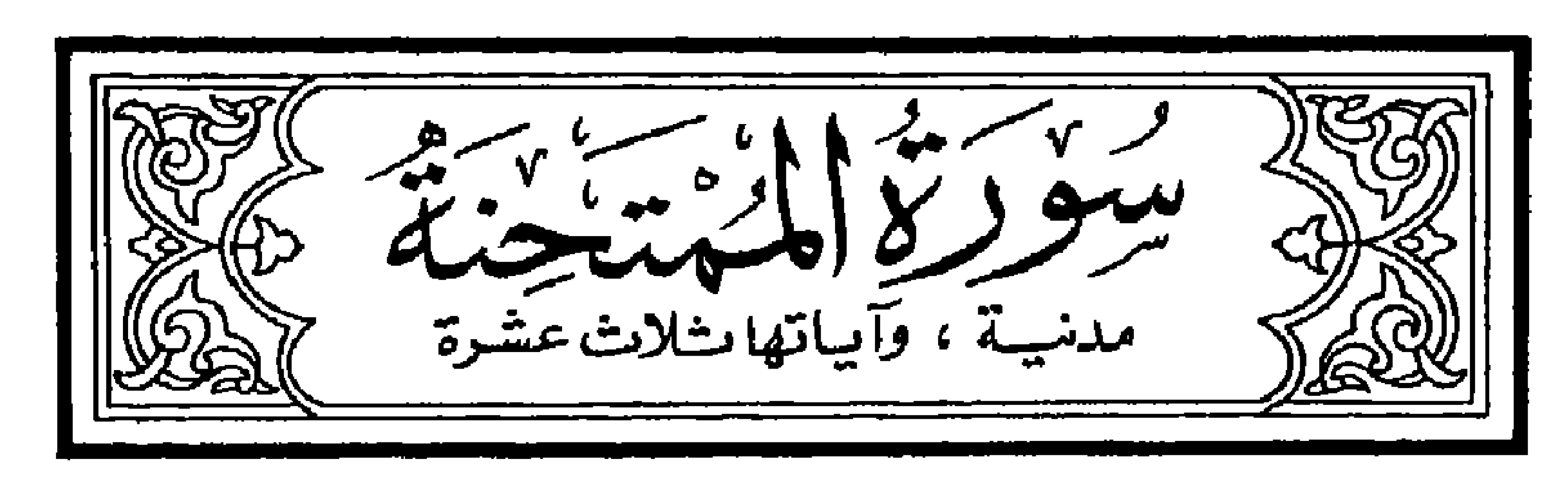
هذا النص القرآني يقرر وحدانية الله سبحانه الذي يجب أن تتوجه إليه القلوب بالعبادة لا إلى غيره ، فهو سبحانه يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا ، والغائبات فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وفي هذا إيحاء للإنسان بأن يراقب ربه في أعماله ، لأنه سبحانه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره . وهو سبحانه ﴿ الرَّحمٰن الرَّحيم ﴾ وهما اسمان مشتقان من الرحمة ، وهي رقة تقتضي الإحسان ، فإذا وصف بها الله فلا يراد بها إلاّ الإحسان المجرد دون الرقة ، فالرحمن هو الذي وسع كل شيء رحمة ولا يجوز أن يسمى بها غير الله ، والرحيم هو الذي كثرت رحمته ، ويجوز أن يطلق هذا الاسم على غيره .

ويتابع القرآن ذكر أسماء الله :

﴿ هُوَ اللَّهُ الذي لا إله إلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلاَمُ المؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجبَّارُ المتَكبِّر سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْركون . هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السَّمٰـوَات وَمَا في الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكيم ﴾ .

فهو سبحانه ﴿ المَلِكُ ﴾ أي المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه

فهم تحت ملكه وإرادته ، وهو ﴿ القدوس ﴾ أي الطاهر عن كل عيب المنزه عما لا يليق به . وهو ﴿ السَّلَامُ ﴾ أي ذو السلامة من النقائص ، وقيل : الذي سلم الخلق من ظلمه . وهو ﴿ المؤمن ﴾ أي المصدق لرسله بالمعجزات ، وقيل : الذي أَمِنَ من آمن به من عذابه . وهو ﴿ المهيْمِنُ ﴾ أي الشاهد على عباده بأعمالهم لا يغيب عنه شيء . وهو سبحانه : ﴿ العزيز ﴾ أي الغالب القاهر . وهو ﴿ الجبَّار ﴾ أي الذي لا يدانيه شيء ، وقيل : المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وهو سبحانه ﴿ المتكَبِّر ﴾ أي المبالغ في الكبرياء والعظمة ، وقيل : المتكبر عن ظلم عباده . ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ تنزه الله عما يشركون به أحداً من خلقه في العبادة . وهو سبحانه ﴿ الخالق ﴾ الذي أبدع الأشياء من غير أصل ولا احتذاء . وهو سبحانه ﴿ البارىء ﴾ أي المنشىء المبدع للأشياء المميز بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة . وهو سبحانه : ﴿ المصوِّرُ ﴾ أي مصور الكائنات ومركبها على هيئات مختلفة ﴿ له الأسماء الحُسْنَى ﴾ له الأسماء الدالة على محاسن المعاني والكمال المطلق ﴿ يُسَبِّحُ له ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، وهكذا ينهي الله هذه السورة بما بدأ به أولها فكل ما في السماوات وما في الأرض يمجده ويعظمه وينزهه عن السوء والنقصان فهو ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي القوي الغالب ، الحكيم في تصرفاته وأفعاله .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم
بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ
أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ

شرح المفردات

عدوّي وعدوّكم : المراد بهم مشركو مكة .

أولياء : أصدقاء وأنصاراً .

تُلقون إليهم بالمودة : تصادقونهم وتحبونهم .

من الحق : من دين الإسلام والقرآن .

يُخرجون الرسول وإيَّاكم : يخرجون النبي ﷺ ويخرجونكم معه من مكة .

أن تؤمنوا بالله ربكم : لأنكم تؤمنون بالله ربكم .

جهاداً في سبيلي : لأجل الجهاد في سبيل الله وإعلاء دينه .

وابتغاء مرضاتي : وطلب رضا الله .

المعنى الإجمالي

يا أيها الذين آمنوا وصدّقوا بنبوة محمد : لا تتخذوا أعداء الله وأعداءكم أنصاراً وأصدقاء تفضون إليهم بالمحبة الخالصة ، مع أنهم جحدوا بما جاءكم من الحق والهدى من عند الله ، وأخرجوا الرسول كما أخرجوكم من دياركم لإيمانكم بالله ربكم ، فيا أيها المؤمنون إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل نصرة الله ونصرة دينه طالبين رضاه ، فلا تبلّغوا هؤلاء الكفرة أسرار المسلمين بسبب

مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ
وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ
أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ

شــرح المفـردات

تُسرون إليهم بالمودة : تبلغونهم سراً مودتكم لهم .

ضلّ سواء السبيل : أخطأ طريق الهدى .

يَثْقَفُوكُمْ : يظفروا بكم .

ودوا : أرادوا ورغبوا .

ويبسطوا : ويمدوا .

بالسوء : بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم .

أرحامكم : قراباتكم لهم .

بصير : عليم ومطلع .

أُسوة حسنة : قدوة طيبة .

تـابع المعـنى الاجمالي

ما بينكم وبينهم من المودة ، والله أعلم بما أخفيتم من المودة للكفار وما أظهرتم بألسنتكم منها ، ومن يتخذ أعداء الله أصدقاء ونصراء فقد أخطأ طريق الهدى .

إنَّ هؤلاء الكفار إنْ يظفروا بكم أو يصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ويمدوا أيديهم بالأذى وألسنتهم بالشتم ، ويتمنوا أن ترجعوا كافرين مثلهم . ويا من آمنتم بالله ورسوله لن ينفعكم أقرباؤكـم ولا أولادكم الذين توالون الكفار لأجلهم ، ويوم القيامة يفصل الله بينكم فيجعل الكفار في النار والمؤمنين في الجنة والله بما تعملون بصير .

مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ
تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ
وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا
وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

شرح المفردات

برآء منكم : متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وهي جمع بريء .

ومما تعبدون : ومما تعبدون من الأصنام والكواكب وغيرها .

كفرنا بكم : كفرنا بدينكم .

عليك توكلنا : عليك اعتمدنا .

أنبنا : رجعنا تائبين .

المصير : المرجع يوم القيامة .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : ربنا لا تسلطهم علينا فيعذبونا .

تابع المعنى الإجمالي

قد كانت لكم ـ أيها المؤمنون ـ قدوة حسنة في إبراهيم والذين آمنوا معه حين قالوا لقومهم : إننا متبرئون منكم ، ومتبرئون من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ، كفرنا بكم ، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ، وهي لن تزول أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، ولا تقتدوا بقول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، ولا تستغفروا للمشركين ، لأنه لما تبيّن لإبراهيم استمرار كفر أبيه تبرّأ منه وقال له : لا أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته . وقد دعا إبراهيم والمؤمنون : ربنا عليك اعتمدنا وإليك رجعنا تائبين إذ إليك المرجع والمآل . ربنا لا تعذبنا بأيدي الكافرين واغفر لنا ذنوبنا ، إنك أنت القوي الغالب ذو الحكمة في تصرفاتك .

كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾
۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ
قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

شرح المفردات

يرجو الله : يطمع في الخير والثواب من الله .

يتولَّ : يعرض عن الإيمان .

الحميد : من أسماء الله تعالى ، وهو الذي يحمد من أطاعه .

عسى : كلمة تفيد الرجاء .

مودة : محبة وصداقة .

تبرّوهم : تحسنوا إليهم وتكرموهم .

تُقسطوا : تعدلوا .

تابع المعنى الإجمالي

لقد كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ في إبراهيم والذين معه من المؤمنين قدوة حسنة لمن يطمع في الخير من الله في الدنيا والآخرة ، ومن يعرض عن الإيمان فإن الله هو الغني عن خلقه ، المستحق للحمد من كل ما عداه .

عسى الله أن يجعل بينكم ـ أيها المؤمنون ـ وبين الذين عاديتم من الكافرين مودة وذلك بتوفيقهم للإيمان ، والله تام القدرة على كل شيء وهو غفور لمن تاب ، رحيم بعباده .

لا ينهاكم الله عن الإحسان والعدل إلى كفار مكة وكافةالملل الذين لم يقاتلوكم بسبب دينكم ، ولم يخرجوكم من دياركم ، إن الله يحب العادلين في

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ
مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟

شرح المفردات

المقسطين : العادلين .

ظاهروا : ساعدوا وأيدوا .

تولّوهم : تتخذوهم أصدقاء وأنصاراً .

مُهاجراتٍ : تاركات مكة إلى المدينة المنورة .

فامتحنوهن : اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن .

فلا ترجعوهُنّ إلى الكفار : فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار .

لا هُنّ حلٌّ لهم : انقطعت صلة الزوجية فيما بينهم .

تابع المعنى الإجمالي

معاملة غيرهم . إنما ينهاكم الله عن الإحسان ومصادقة الذين حاربوكم في الدين ليصدوكم عنه ، وأجبروكم على الخروج من دياركم ، وعاونوا أعداءكم على إخراجكم ، ومن يصادقهم ويتخذهم نصراء فأولئك هم الظالمون .

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات إليكم من دار الكفر فاختبروهن لكي تظهر لكم أسباب هجرتهن ، هل هاجرن راغبات في الإسلام ؟ أم أنّ لهن مآرب أخرى من الهجرة ، والله وحده أعلم بحقيقة إيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار ، لا المؤمنات يحل زواجهن من الكافرين ، ولا الكافرون يحل زواجهم من المؤمنات ، وآتوا الأزواج الكافرين

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ
الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ
فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ

شرح المفردات

ولا جُناح : ولا إثم ولا حرج .

تنكحوهن : تتزوجوهن .

إذا آتيتموهن أجورهن : إذا أديتم لهن مهورهن .

لا تُمسكوا بِعِصَمِ الكوافر : لا تتمسكوا بعقود الزواج من الكافرات .

وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار : وإن ارتد بعض نسائكم فلحقن بالكفار .

فعاقبتم : أي غزوتم الكفار وأخذتم منهم غنائم .

فآتوا الذين ذهبت أزواجهم : فأعطوا المؤمنين الذين تركتهم زوجاتهم الكافرات.

مِثْلَ ما أنفقوا : مثل ما دفعوه من مهور لهن .

تابع المعنى الإجمالي

بعد فسخ الزواج ما أنفقوا من المهور على زوجاتهم المهاجرات إليكم، ولا حرج عليكم ولا إثم أن تتزوجوا من هؤلاء المهاجرات إذا آتيتموهن مهورهن ، ولا تبقوا على زوجاتكم الكافرات ، لقد انقطعت بينكم وبينهن عقود الزواج بسبب كفرهن ، واطلبوا منهن ومن أهلهن رد ما أديتم لهن من مهور ، وليطلب الكفار الذين تركتهم زوجاتهم المؤمنات ما دفعوا إليهن من مهور ، ذلك التشريع هو حكم الله يحكم به بينكم وبينهن ، والله عليم بمصالح عباده حكيم في تشريعه .

وإن ارتد بعض زوجاتكم إلى الكفر ، وعدن إلى صفوف الكفار ، ولم يدفع هؤلاء الكفار المهور التي أنفقها المؤمنون عليهن ، ثم أصبتم غنائم في حرب لكم مع هؤلاء الكفار فأعطوا المؤمنين الذين كانوا أزواج هؤلاء المرتدات من

ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ
يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا
يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ
وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

يبايعنك : يعاهدنك .

ولا يأتين ببهتان يفترينه : أي لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم .

ولا يعصينك في معروف : ولا يعصينك فيما تأمر به من طاعة الله .

لا تتولّوا : لا تصادقوا ولا تناصروا .

يئسوا من الآخرة : يئسوا من مجيء الآخرة وثوابها .

كما يئس الكفار من أصحاب القبور : كيأس الكفار من موتاهم أن يرجعوا إليهم .

تابع المعنى الإجمالي

هذه الغنائم قدر ما دفعوه إليهن من مهور ، وافعلوا ما يقيكم من غضب الله الذي تؤمنون به .

يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يعاهدنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يلحقن بأزواجهن من ليسوا من أولادهم بهتاناً وكذباً ، ولا يخالفنك في معروف تدعوهن إليه ، فعاهدهن على ذلك ، واطلب لهن المغفرة من الله ، والله عظيم المغفرة والرحمة .

يا أيها الذين آمنوا لا تصادقوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة وما فيها من ثواب وحساب ، كما يئس الكفار أن يرجع إليهم موتاهم أحيـاء .

سُورَةُ المُمْتَحِنَة

ايضـــاح و دروس

يُروى في أسباب نزول معظم هذه السورة : أن النبي لما عقد العزم على الزحف إلى مكة أمر بتعبئة جيشه ولم يخبر أحداً بما عزم عليه كي لا يشيع الأمر فتعلم به قريش فتستعد للحرب ، والنبي ﷺ لا يريد حرباً ولا إراقة دماء . ولكن أحد أصحاب النبي واسمه « حاطب بن أبي بلتعة » كان له أقارب بمكة ، فأراد أن يتخذ عند قريش معروفاً ليدفع أذاهم عن أقاربه ، فكتب كتاباً إلى قريش بالذي أجمع عليه النبي ﷺ من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه إلى امرأة لتوصله إليهم مقابل أجر على ذلك ؛ فأخذت المرأة الكتاب وأخفته في طيات شعرها ، فأتى النبي الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليًّا بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وقال لهم : أدركوا امرأة قد أرسل معها حاطب كتاباً إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا لهم من أمرنا ، فخرجوا حتى أدركوها على الطريق إلى مكة ، ووجدوا معها الكتاب بعد أن حاولت الإنكار ، فأتوا بحاطب إلى النبي ﷺ الذي سأله قائلاً : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ فقال : « يارسول الله ، والله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك[1] ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ وله بمكة من يمنع عشيرته ، وكنت غريباً فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيهم ، فخشيت على أهلي ، فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً ، فصدّقه رسول الله وعذره » .

فنزلت هذه الآيات وما بعدها :

---

(١) نصحتك : أخلصت لك .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمَودَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا باللَّهِ رَبِّكُمْ ، إِنْ كُنْتُم خَرَجْتُمْ جِهَاداً في سَبِيلي وابتغَاءَ مَرْضَاتي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبيل ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين : بأن لا يجعلوا الكفار أنصاراً وأعواناً ، فيبلغوهم أسرار المسلمين بسبب ما بينهم وبين الكفار من مودة ، وهؤلاء الكفار كفروا بالحق ، وهو الإسلام ، وأخرجوا الرسول والمؤمنين من مكة ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله ربكم الواحد الأحد.

ثم يستثير الله حمية المؤمنين بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً في سَبِيلي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتي ﴾ شرطٌ حُذف جوابه[1]، أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلباً لرضوانه فلا تتخذوا أعداء الله نصراء لكم ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ تسرون إليهم بالنصيحة وتخبرونهم بأسرار المسلمين ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُم﴾ والله يعلم ما أضمرتم في نفوسكم وظاهر أعمالكم ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويفشِ أسرار المسلمين فقد حاد عن طريق الحق والهدى .

ثم يكشف القرآن عن حقيقة الكفار وما تنطوي عليه نفوسهم نحو المؤمنين :

﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يكونوا لكم أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلسِنَتَهُمْ بالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

---

(١) هذا شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وقيل إنه متعلق بـ « لا تتخذوا » .

والمعنى : إن يظفر بكم الكافرون ويصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ويبسطوا إليكم أيديهم بالإيذاء ، وألسنتهم بالشتم والسباب ، والأكثر من ذلك أنهم يتمنون ارتدادكم عن دينكم ورجوعكم إلى الكفر .

ثم تأتي الآية الكريمة وفيها اللوم على ما فعله « حاطب » من مصادقته للكافرين مبتغياً بذلك نفع أقاربه وأولاده :

﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أولادُكُم ، يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم ـ الذين تصادقون الكفار من أجلهم ـ يوم القيامة شيئاً ، وفي ذلك اليوم يحكم الله بين المؤمنين والكافرين فيدخل المؤمنين جنات النعيم ويدخل الكافرين إلى النار .

وبعد هذا تركز الآيات على نفس الفكرة بعدم موالاة الكافرين فيرسم الله للمؤمنين مثلاً أعلى ، وقدوة طيبة يجدر بهم أن يقتدوا بها ، وهذه القدوة تتمثل في نبيه إبراهيم والذين آمنوا معه :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ : لأَسْتَغْفِرنَّ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيء ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنْبَنَا وَإِليكَ المَصِيرُ ﴾ .

لقد تبرأ إبراهيم ومن معه من المؤمنين من قومهم ومما يعبدون من دون الله من الأصنام ، هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، والتي قيدت العقل

البشري ، وجعلته أسير الأوهام والخرافات . لقد عادى إبراهيم ومن معه من المؤمنين قومهم بسبب كفرهم وقالوا لهم : ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي جحدنا وأنكرنا ما أنتم عليه من الكفر وما تعبدون من دون الله ، كما أنهم شهروا في وجوههم سلاح العداوة والبغضاء أبداً حتى يرجعوا عن كفرهم ويؤمنوا بالله وحده .

هذا المسلك من مقاطعة إبراهيم والمؤمنين لقومهم أثنى الله عليه وجعله أمثولة يجب أن يحتذيها المؤمنون ، ولكن باستثناء أمرٍ نهى الله أن يتأسوا به وهو استغفار إبراهيم لأبيه ؛ وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يستغفرون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله قوله :

﴿ مَا كَانَ للنّبِي وَالَّذينَ آمنوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا للمشركين وَلَوْ كانوا أُولي قُربى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّن لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَاب الجحيم . وَمَا كَانَ استِغْفَارُ إبراهيمَ لأبيه إلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّن لَهُ أَنَّهُ عدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة : ١١٣ ، ١١٤ .

فاستغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن وعد قطعه له أبوه بأن يؤمن ، فلما أصرّ على الكفر وتبيّن لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه .

وقول إبراهيم لأبيه : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللهِ مِنْ شيءٍ ﴾ قيل هي من ضمن ما استثناه الله ، والمعنى : أنا أستغفر لك يا والدي وما في طاقتي إلاّ الاستغفار ، ولو أني أملك أكثر من ذلك لفعلت . وقيل هذا الكلام خارج عن الاستثناء ومعناه : وما أدفع عنك من الله من عقوبة إن عاقبك الله على كفرك ، ولا أُغني عنك منه شيئاً .

ودعاء إبراهيم ومن معه من المؤمنين لربهم هو أمثولة أيضاً :

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ .

فالمتوكل على الله يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ، ويستسلم له . والإنابة إلى الله : هي الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل . ﴿ وإليه المصير ﴾ أي : المرجع يوم القيامة .

ومن جملة دعاء إبراهيم ومن آمن معه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَروا واغْفِر لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

والفتنة تأتي بمعان كثيرة منها : الابتلاء ، والعذاب ، والضلال ، والكفر . فيكون المعنى : ربنا لا تجعلنا معذبين بيد الذين كفروا ، فالفتنة هنا بمعنى العذاب . أو بمعنى آخر : ربنا لا تجعلنا فتنة لهم بالقدوة السيئة وسبباً لإضلالهم عما يجب أن يكونوا عليه من الحق والهدى ، فالفتنة هنا بمعنى الضلال . أو بمعنى آخر أيضاً : ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا ، فالفتنة هنا بمعنى الكفر . ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ﴾ واستر علينا ذنوبنا بعفوك . وتكرار النداء « ربنا » للمبالغة في اللجوء إليه والتضرع له . ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ إنك أنت يا رب الغالب الشديد الانتقام ممن عصاك ، الحكيم في تدبيرك لشؤون خلقك .

ثم كرر القرآن الدعوة إلى القدوة بإبراهيم ومن آمن معه زيادة في الحث على الاقتداء بهم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فيهم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ واليَوْمَ الآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فإِنَّ اللَّه هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ .

ومعنى : ﴿ يرجو الله ﴾ فالرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرّة ، أي : إن هذه القدوة تكون لمن يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هُوَ الغنيُّ الحَمِيدُ ﴾ أي من يعرض عن الإيمان فإن الله هو الغني عن العباد ، المستحق للحمد فلا يضره من يعرض عن الإيمان .

هذا النهي الإلّهي عن مصادقة الكفار والتودد إليهم ، والدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم ومن آمن معه في التبرؤ من قومهم ، فعل فعله في نفوس المؤمنين ، فتبرأ الكثيرون من المسلمين من قومهم وأقاربهم ، وأظهروا لهم العداء ، لكن هذا العداء ترك انطباعاً مؤلماً عند بعض المسلمين ، وتمنوا لو يجدون المخرج منه ، وفي غضون ذلك نزلت هذه الآية الكريمة تَعِدُ المؤمنين بإزالة هذا العداء ، وتغليب نزعة الود على نزعة الكراهية :

﴿ عَسَى اللَّهُ أنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، واللَّهُ قَدِيرٌ ، واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

﴿ عسى ﴾ كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت كلمة « عسى » من الله فما بعدها هو واجب الوقوع . وقد تحقق هذا الوعد الإلّهي بفتح مكة ،ودخول المشركين في دين الله أفواجاً . فتصافت القلوب على الإيمان ، وزالت الجفوة والكراهية التي سببها الكفر . وتُعتبر هذه الآية معجزة من معجزات القرآن ، لأنها أخبرت عن نبأ غيبي لم يلبث أن تحقق بعد فترة وجيزة من الإعلان عنه . والله قادر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ، وهو غفور لمن تاب رحيم بعباده المؤمنين .

وبعد هذا يرسم الله للمسلمين علاقاتهم مع الذين يخالفونهم في دينهم :

﴿ لايَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . إنَّما يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ في الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين : أن يعاملوا أهل الملل والأديان بالبر والقسط ، والبر كلمة جامعة لكل صنوف الخير ، والقسط هو العدل ، هذا إذا لم يقاتلوا المسلمين بسبب دينهم ، ولم يضطهدوهم فيضطروهم إلى الخروج من ديارهم . ولا شك أن هذا التوجيه الذي يقرره الإسلام يظهر مدى سماحته واتساع صدره في معاملة الذين يخالفونه في العقيدة ، فهو لم يمانع في برّهم ومعاملتهم على أساس من الحق والعدل ، ولا شك أن في هذا أسمى أنواع التسامح يمكن أن يوصي به دين أتباعه المؤمنين . ﴿ إنَّ اللَه يُحِبُّ المقْسِطين ﴾ أي إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم فيحسنون إلى من أحسن إليهم .

أما الذين يقاتلون المسلمين بسبب دينهم ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويعاونون أعداءهم على إخراجهم من أوطانهم ، فالإسلام ينهى عن مصادقتهم ونصرتهم ، وهذا عدل لا شائبة فيه ، ولا يمكن أن يعترض عليه أحد . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون الذين يعرضون أنفسهم لسخط الله .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان حكم الزوجة إذا أسلمت وهاجرت إلى ديار الإسلام تاركة زوجها في ديار الكفر على كفره :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ المؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بإِيمَانِهِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌ لَهُمْ وَلاَهُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُموهُنَّ أُجورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوافِرِ واسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُم وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية بعد صلح الحديبية وفيها بند أن من يأتي من الكفار إلى المسلمين مُسلماً يرد من حيث أتى ، فجاءت هذه الآيات تبين حكم النساء لأن الفقرة المتفق عليها لا تشمل النساء .

فالله سبحانه يأمر باختبار المؤمنات اللائي هاجرن إلى المدنية المنورة ، وكان ذلك الاختبار يحصل بأن يحلفن بالله على أنهن ما تركن مكة ولا هاجرن إلى المدينة إلّا رغبة في الإسلام ، فإن تأكد إيمانهن فلا يصح أن تُرد المهاجرة المؤمنة إلى زوجها الكافر ، لأنها لا تحل له بعد أن آمنت بالله ، ولا الزوج الكافر يحل لها بعد أن ظل على كفره . ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ أي : أعطوا الأزواج الكفار الذين فارقتهم زوجاتهم ما سبق أن قدموه من المهور لهؤلاء المؤمنات المهاجرات . ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي لا إثم عليكم ـ أيها المؤمنون ـ في الزواج من هؤلاء المؤمنات اللاتي تركن أزواجهن الكفار ، بشرط أن تقدموا لهن مهورهن . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ ﴾ أي لا تتمسكوا ـ أيها المؤمنون ـ بعقود الزواج التي بينكم وبين زوجاتكم الكافرات بل فارقوهن ، والكوافر جمع كافرة ، ولهذا طلق الصحابة بعد

نزول هذه الآية زوجاتهم الكافرات اللاتي بقين على الكفر بمكة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ واسْألوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ أي من ذهبت من المسلمات مرتدة عن دينها إلى الكفار ـ من أهل العهد ـ يقال للكفار : هاتوا مهرها الذي دفعه زوجها المسلم ليرد إليه ، ويقال للمسلمين : إذا أسلمت امرأة وجاءت إلى عند المسلمين تاركة زوجها الكافر ، ردوا مهرها إليه ، ثم يعقب الله على ذلك قوله : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي ذلكم الذي ذُكِرَ هو حكم الله فاتبعوا مايحكم به بينكم ﴿ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بأحوالكم ، حكيم في تشريعه .

ثم يذكر القرآن حكم المرتدات عن الإسلام وحق أزواجهن باسترداد مهورهن :

﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فآتُوا الَّذينِ ذَهَبَت أَزْوَاجُهُم مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا واتَّقُوا اللَّهَ الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤمِنونَ ﴾ .

والمعنى : وإن ذهبت إحدى زوجاتكم ـ أيها المؤمنون ـ إلى الكفار مرتدة عن دينها ، ولم يردوا إلى زوجها المسلم المهر الذي دفعه لها ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي غزوتم الكفار وحصلتم منهم على غنيمة ، فأعطوا حينئذٍ الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار من أموال الغنيمة مثل ما أنفقوا على زوجاتهم المرتدات من المهور . ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون ، فقوموا بطاعته ، واجتنبوا نواهيه .

وبعد ذلك يبين القرآن منزلة المرأة في الإسلام ، وأنها تتساوى مع الرجال في القيام بشعائر الدين ، فقد كان النبي ﷺ يعاهد الرجال على السمع والطاعة ، والقيام بحدود الشريعة ، وكذلك عاهد النساء كما أمره

الله ، هذا في الوقت الذي كان فيه كثير من الشعوب ينظرون إلى المرأة بامتهان ، ويحرمون عليها أداء شعائر دينها :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فالله يأمر نبيه إذا جاءته المؤمنات مبايعات أن يبايعهن (أي يعاهدهن) على : أن لا يشركن بالله شيئاً في عبادته والتوجه إليه ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يئدن البنات في التراب فيقتلوهن ـ كما كان يحصل في الجاهلية ـ ﴿ ولا يأْتين بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ أي لا يلصقن أولاد الأجانب بأزواجهن كذباً وبهتاناً كما كانت تفعل بعض النساء في الجاهلية تقول الواحدة لزوجها هذا ولدي منك . وذكر القرآن الأيدي والأرجل لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْروفٍ ﴾ والمعروف : اسم جامع لكل ما عُرفَ من طاعة الله والإحسان إلى الناس ، وكل ما أمر به الدِّين وما نهى عنه ، والتقييد بالمعروف مع أن رسول ﷺ لا يأمر إلّا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق ﴿ فَبَايِعْهُنَّ واستغفر لَهُنَّ الله ﴾ أي فعاهدهن على الوفاء بما ذكر ، واطلب من الله الغفران لهن إن الله غفور رحيم إذا وفين بما عاهدن عليه .

ثم يختم الله هذه السورة بما بدأ به أولها من النهي عن مصادقة ونصرة الكافرين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ القُبُورِ ﴾ .

فالله ينهى عن اتخاذ الكافرين ـ الذين غضب الله عليهم ـ نصراء وأصدقاء ، فهم قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها لأنهم لم يصدقوا بها وبما فيها من ثواب وعقاب ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ ﴾ أي كما يئس الكفار الأحياء من موتاهم الذين في القبور أن يرجعوا إليهم .

فالنصرة والصداقة لا تكون ألّا بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، لأنهم يسيرون على طريق الحق والهدى .



بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا
مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ

شرح المفردات

سبَّح لله : مجد الله وعظمه ونزّهه عما لا يليق به .

العزيز : من أسماء الله تعالى ، وهو القوي الغالب كل شيء .

كَبُرَ : عظم .

مَقْتاً : المقت هو البغض الشديد .

صفاً : مصفوفين ، والمراد ثابتين متحدين .

بُنيان مرصوص : بنيان متلاصق محكم .

لقومه : هم بنو إسرائيل .

المعنى الإجمالي

نَزَّهَ الله عن كل نقص ، ووصفه بكل كمال ، وعظمة وقدّسه كل ما في السماوات والأرض ، والله هو القوي الغالب ذو الحكمة البالغة .

يا أيها الذين آمنوا : لماذا تقولون كلاماً لا يصحبه عَمَلٌ يؤيده وينفذه ، لَشَدَّ ما يبغض الله أن يخالف قولكم عملكم . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيل نصرة دينه متحدين متماسكين كأنهم بنيان محكم .

تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ ٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ
يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ

شرح المفردات

زاغوا : مالوا عن الحق .

أزاغ الله قلوبهم : أمال الله قلوبهم عن الهدى وصرفها عن قبول الحق .

الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله وهديه .

يا بني إسرائيل : يا ذرية يعقوب وهم اليهود .

مُصَدِّقاً : مقراً ومعترفاً .

لما بين يديّ : لما تقدمني من الكتب السماوية كالتوراة والزبور .

أحمد : من أسماء نبيّ الإسلام ، ومعناه : أحمد الناس لربه .

بالبينات : بالأدلة الواضحة على رسالته .

تابع المعنى الإجمالي

واذكر يا محمد حين قال موسى لقومه : لماذا تؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم ؟ فلما انحرفوا عن الحق أمال الله قلوبهم عن قبول الهداية ، والله لا يهدي القوم الخارجين عن طاعته .

واذكر حين قال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مؤيداً ومصدقاً لما تقدمني من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم الرسول محمد المبشّر به بالآيات الواضحات ، قالوا له : إن الذي جئتنا به هو سحر واضح ظاهر .

مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

شرح المفردات

مبين : بيّن ظاهر .

ومن أظلمُ : لا أحد أكثر ظلماً .

ممّن افترى : من الذي اختلق وكذب .

نور الله : دين الإسلام .

بالهدى : المراد به القرآن لأنه يهدي .

دين الحق : دين الإسلام .

لِيُظهره على الدين كله : ليعليه وينصره على الأديان كلها .

تُنجيكم : تنقذكم وتخلصكم .

تابع المعنى الإجمالي

ومن أشد ظلماً ممن اختلق على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام ، والله لا يهدي القوم المصرّين على الظلم .

يريد بنو إسرائيل باختلاقهم الكذب على الله أن يطفئوا نور دينه بأفواههم ، والله مكمل نوره بإتمام دينه ولو كره الكافرون .

الله الذي أرسل رسوله محمداً بالقرآن هدى للناس ، وبالإسلام دين الحق ليجعله متفوقاً على جميع الأديان ولو كره المشركون.

يا أيها الذين آمنوا : هل أرشدكم على تجارة تنجيكم من عذاب شديد

وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

شَرح المفردَات

ذلكم : ما ذُكر من الإيمان والجهاد .

جنات عدن : جنات إقامة مستقرة .

وأخرى تحبونها : ويؤتكم نعمة أخرى تحبونها .

تابع المعنى الإجمالي

مؤلم . هذه التجارة أن تداوموا على الإيمان بالله ورسوله ، وتجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك الذي أرشدكم الله إليه هو خير لكم إن كنتم تعلمون ما في ذلك من المنافع لكم . وبهذا الإيمان والجهاد يغفر لكم ربكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويمتعكم بالإقامة في المساكن الطيبة في هذه الجنات التي تخلدون فيها ، ذلك الجزاء هو الفوز العظيم . هذه البشرى تحصلون عليها في الآخرة . وهناك نعمة أخرى عاجلة لكم أيها المؤمنون تحبونها ، هي نصر من الله وفتح قريب لبلدان هي بيد أعدائكم ، وبشِّر المؤمنين يامحمد بهذا النصر .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

للحواريين : هم أصحاب عيسى عليه السلام المقربون الذين آمنوا به وأخلصوا له .

طائفة : جماعة .

فأيَّدنا : فنصرنا وقوّينا .

فأصبحوا ظاهرين : فصاروا غالبين .

تابع المعنى الإجمالي

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله فارفعوا شأن دينه ، وأعلوا كلمته إذا دعاكم رسول الله أن تكونوا أنصاره ، كما قال عيسى بن مريم لأتباعه المخلصين : من أنصاري إلى الله ؟ قالوا : نحن أنصار الله ، فآمنت جماعة من بني إسرائيل بعيسى وكفرت جماعة ، فقوّى الله ونصر الذين آمنوا بعيسى على عدوهم الذين كفروا ، فأصبح المؤمنون منتصرين وغالبين على أعدائهم .

سُورَةُ الصَّفِّ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تدعو إلى وحدة الصف بين المسلمين ، وتحث على الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ، وتبين أن الله سبحانه خصَّ موسى برسالته لهداية الناس ، فلما انحرف اليهود بعد وفاة نبيهم موسى عن تعاليم الله ، أرسل الله سبحانه عيسى عليه السلام مجدّداً لتعاليم التوراة ، ومبشراً برسالة محمد ﷺ ، وقد كانت رسالة محمد متممة للرسالات الإلّهية السابقة ، ومشتملة على مبادىء الحق والعدل والمساواة .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

فكل شيء في السماوات والأرض ينزه الله عن النقص ، ويبرِّئه من العيب ويقدّسه ، فهو سبحانه القوي الغالب ، وهو الحكيم في تدبيره وخلقه .

ثم يوجِّه الله اللوم الشديد للذين لا يقرنون القول بالفعل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

هذه الوصية شاملة لجميع أفراد الأمة ، ينطوي في مضمونها الخير كل الخير ، وترسم مسلكاً خُلقياً رفيع المدى ، إذا سارت عليه الأمة تقدمت شوطاً كبيراً في مضمار الرقي . إنها توصي بما هو متعارف عليه من الدقة

بالمواعيد ، والصدق في العهود والمواثيق ، وتجنب الإدعاءات الباطلة .

فالله سبحانه يقول : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ فهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ ، ثم يضيف قوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ : عظم ، والمقت : البغض الشديد لمن تراه تعاطى القبيح ، فهذان وصفان شديدا التقريع ، وشديدا التوبيخ لكل قوم يقولون ما لا يفعلون[١] .

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى وحدة الصف ، وعدم التخاذل والتفرقة ، ومقابلة الأعداء في جبهة متحدة :

﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ .

فالله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ملازمين مكانهم ثابتين ثبات البناء المرصوص ، والرص : إنضمام الأشياء بعضها إلى بعض ، أو بمعنى آخر أن يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص .

ثم يلمح القرآن إلى الأذى الذي كان يلقاه موسى من قومه تثبيتاً لقلب النبي محمد ﷺ ، وتحذيراً للمؤمنين من سلوك مسلك اليهود مع نبيهم موسى .

---

(١) جاء في أسباب نزول هذه الآيات : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله هذه الآيات المذكورة .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

أي واذكر يا محمد قصة موسى مع قومه حين قال لهم : لماذا تؤذونني وقد رأيتم من الدلائل ما يشهد بأني رسول الله إليكم لأرشدكم إلى ما فيه سعادتكم ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أي مالوا عن الاستقامة وعن الحق الذي جاء به موسى ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي صرفها عن الخير والهدى وقبول الحق . ﴿ والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي إن الله لا يهدي الخارجين عن طاعته ، فالهداية والإضـلال من الله هما عن سابقة استحقاق ، فاحذروا يا أمة محمد أن تكونوا مثل هؤلاء .

أما إيذاء بني إسرائيل لموسى فهو على ألوان ، فقد قالوا له كما جاء في القرآن : ﴿ أَرِنَا الله جَهْرَةً ﴾ وقالوا له : ﴿ فاذهب أنت وربُّك فَقَاتِلاَ إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون ﴾ وقالوا : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كما لَهُمْ آلهة ﴾ . . . إلى غير ذلك .

وبعد رسالة موسى أرسل الله عيسى بن مريم رسولاً إلى بني إسرائيل :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

أي واذكر لقومك يا محمد ما قال عيسى بن مريم لقومه : يا قوم إني مُرْسَلٌ إليكم من الله وإني مصدق بالتوراة[1] .

---

(١) جاء على لسان عيسى في كتب النصارى : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » متى ٥ : ١٧ .

كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[1] وأحمد اسم لنبي الإسلام ، كما أن من أسمائه : « محمد » و « محمود » وهذه الأسماء مشتقة من الحمد وهو الشكر الذي هو نقيض الذم .

« محمد » : هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له . و « أحمد » : اسم تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره ، أو بمعنى أحمد الحامدين لربهم . و « محمود » : أي مشكور من الخلق لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي حين جاءهم أحمد المبشّر به بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الظاهرة فاجأوه بالتكذيب والإعراض عنه ، استكباراً وعناداً ، وقالوا له : إن ما جئت به ما هو إلّا سحر واضح ظاهر .

ثم يستنكر القرآن إعراض خصوم محمد عن الإسلام ، كاشفاً عن نياتهم

---

(١) هذه البشارة موجودة في كتب النصارى فقد كان المسيح يعبر عن المبشر به بلفظ (فارقليط) فقد جاء في كتبهم : « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد » الفصل الرابع عشر من إنجيل يوحنا ١٦ ـ ١٧ ـ وكذلك ورد بهذا المعنى الفصل ١٥ و ١٦ . وقد بدل الرهبان لفظ (فارقليط) في المطبوعات الأخيرة بلفظ (المعزى) ولفظ فارقليط تعريب لفظ (بيريكلتوس) وقد سأل الأستاذ عبد الوهاب النجار الدكتور كارلو نلينو عن معنى (بيريكلتوس) فأجاب بقوله : إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها (المعزى) فرد عليه قائلاً : إني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية ولست أسأل قسيساً ، فقال : إن معناها الذي له حمد كثير ، وسأله : هل يوافق ذلك أفعل التفضيل من حمد ، فقال نعم . وهذا مصدق قوله تعالى : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ ـ ملاحظة : ذكر ذلك الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء .

المبيتة ضده :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ ، واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ .

فالقرآن يقول : ومن أشد ظلماً ممن يُدعى إلى الإسلام والخضوع لله ، فلا يجيب الداعي ، بل يفتري على الله الكذب بتكذيب رسول الله محمد ﷺ ، وتسمية آيات القرآن سحراً ، والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشدهم . إنهم يريدون بهذا التكذيب ﴿ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ونور الله هو دين الإسلام وكان في أول عهده ضعيفاً وقد ظن المشركون والمنافقون أنهم يستطيعون القضاء عليه وإطفاء نوره وأنّى لهم ذلك فالله ﴿مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ ولقد صدق الله وعده فنصر رسوله ، وأكمل للمسلمين دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه ويجاهدون في سبيله .

ثم تأمل هذه النبوءة عن انتشار الإسلام ، وقد أعلنها الله حين كان المسلمون قلة ، وحين كان أعداؤهم يحيطون بهم من كل جانب :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ .

شهادة من الله ، ومن أصدق من الله قيلا ، بأن الإسلام هو الهدى ، وهو دين الحق ، أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ﴿ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي ليعلو على الأديان كلها وتكون له الغلبة . ولقد أنجز الله وعده وتحقق ظهور الإسلام على كل الأديان التي كانت في زمانه وذلك بعد بضع عشرة سنة من

وفاة النبي بواسطة الفتوحات العظيمة التي تمت على يد خلفائه ، ولا ريب أن تحقق هذا الوعد من أعظم الدلائل على أن القرآن وحي إلّهي وعلى صدق نبوة محمد ﷺ ، وسيعلو الإسلام وينتشر مصداقاً لوعد الله قريباً على جميع الأديان عندما تصل حقيقته إلى أذهان وقلوب الملايين من البشر ، فالإسلام هو الدين الوحيد بين الأديان الحاضرة الذي يلائم بين مطالب الروح والجسد .

وبعد هذا البيان وفي جو البشرى بانتصار الإيمان وغلبة الإسلام تنتقل الآيات إلى تشويق المؤمنين وإرشادهم إلى أربح تجارة تنجيهم من العذاب ، ويحصل لهم منها الخير الكثير :

﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم . تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يخاطب المؤمنين : ﴿ هل أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليم ﴾ أُسلوب يفيد التشويق ، وإثارة الاهتمام بما يأتي بعده ، هذه التجارة الرابحة هي : ﴿ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فالإيمان بالله ورسوله هو اتباع دين الإسلام الذي جاء بأعدل تشريع ، وأسمى مبادىء الحق التي تسعد الآخذين به ، وترشدهم إلى ما فيه الخير لهم في الحياة الدنيا والآخرة .

ومن الأسباب التي دعت القرآن الكريم إلى تشبيه الإيمان بالله والجهاد في سبيله بالتجارة الرابحة هو أن قبيلة قريش كانت تزاول التجارة فضرب الله لها مثلاً في حياتهم التي يحيونها .

ثم عقّب القرآن بعد ذلك : ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ وذلك من أجل قهر أعداء الله وأعداء المؤمنين ، ونشر دين الإسلام ، وإعلاء كلمة الله . وظاهر أن الجهاد هو الموضوع الرئيسي لهذه السورة جاء في صدر السورة ، ثم جاء هنا بهذا الأسلوب من التشويق ، وما ذاك إلاّ لمدى أهميته من جهة ولتثبيته في النفوس من جهة أخرى .

والجهاد هو المسلك الذي يحفظ للأمة الإسلامية قوتها ، ويرهب أعداءها ، ويقوي نفوس أبنائها ، فترك الجهاد يؤدي إلى الركون لملذات الحياة ، والاستنامة إلى الترف ، فيؤدي ذلك إلى ميوعة الشعب ، وانتشار الفساد فيه ، فتضعف نفسية أفراده ، وتنمو الأثرة عنده ، فتفقد الأمة بذلك أكبر مصادر قوتها ، فيغير عليها جيران لها يطمعون بخيراتها فيستولون عليها ، ويذيقونها ألوان الخزي والعذاب ، ولهذا كان القرآن رائعاً عندما بيّن الثمرة الطيبة التي يمكن أن يجنيها الإنسان من الإيمان والجهاد بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم إن لهذه التجارة التي ذكرها القرآن فوائد آجلة ، وأخرى عاجلة ، فالآجلة وقد بدأ بها لأهميتها وأفضليتها على العاجلة ألا وهي قوله تعالى :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ .

فالله يعد المؤمنين في الآخرة بغفران ذنوبهم وإدخالهم إلى بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، وإسكانهم في قصور رفيعة في جنات الإقامة الدائمة ، ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه .

ويعقب القرآن بعد ذلك على ذكر الفوائد العاجلة :

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَها ، نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ المؤْمِنِينَ ﴾ .

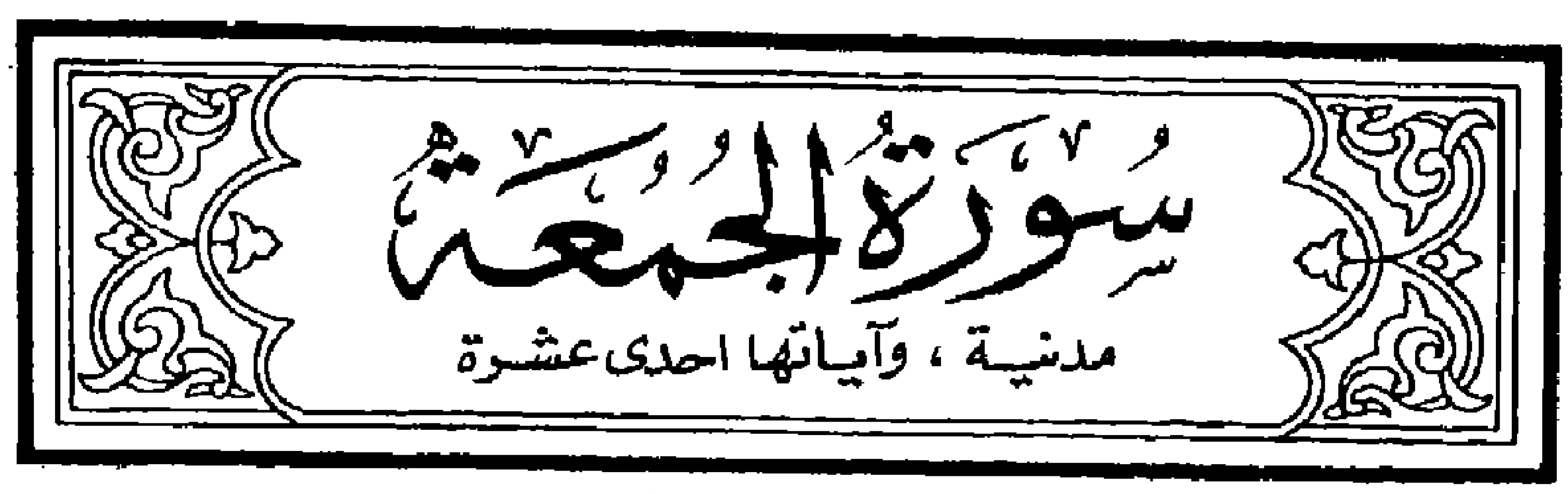
هذه الآية من الأنباء الغيبية للقرآن ، ومعجزة من معجزاته ، فقد نزلت قبل فتح مكة بقليل ، وقد أنجز الله وعده فتم النصر المبين للمؤمنين في دخولهم مكة ، والسيطرة على جميع أرجاء جزيرة العرب .

ثم يختم الله هذه السورة بدعوة المسلمين إلى أن ينصروا دين الله ، كما نصر الحواريون دين عيسى أيام كان دينه قائماً على توحيد الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كونوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلحَوارِيِّينَ : منْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الحَوارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمنوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين بأن ينصروا دينه الذي أنزله على نبيه محمد كما نصر الحواريون الدين الذي أنزله الله على عيسى بن مريم. والحواريون هم أصفياء عيسى عليه السلام وخواصه وكانوا اثني عشر رجلاً ، وهم أول من آمن بعيسى من بني إسرئيل . ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ لما بلّغ عيسى عليه السلام رسالة ربه اهتدت جماعة من بني إسرائيل بما جاءهم به عيسى من الهدى ، وضلت جماعة أخرى جحوداً لرسالته أو غُلوًّا في المعتقد كقولهم عن عيسى : إنه ابن الله ، وإنه الله .

﴿ فَأَيَّدْنا الَّذِينَ آمنوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أي فنصر الله المؤمنين وجعل لهم الغلبة على عدوهم عالين عليهم ، وفي ذلك بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني ما داموا متناصرين على الحق مجتمعين عليه غير متفرقين .



بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾

شرح المفردات

يُسبِّح لله : يمجد الله ويعظمه وينزهه عما لا يليق به .

القدُّوس : من أسماء الله تعالى ، وهو الطاهر المنزه عن النقائص .

الأميين : هم العرب في عصر النبي الذين كان أكثرهم لا يقرأ ولا يكتب .

رسولاً منهم : هو محمد ﷺ من جنسهم ونسبهم .

يزكّيهم : يطهرهم من أدناس الجاهلية والكفر .

الكتاب : القرآن .

الحكمة : السُّنّة وفهم الدين .

وإن كانوا من قَبْلُ : وقد كانوا قبل هداية النبي لهم .

المعنى الاجمالي

يُسبِّح الله وينزهه عما لا يليق به ويقدّسه كل ما في السماوات وما في الأرض ، فهو سبحانه المالك كل شيء ، الطاهر المبرأ من كل عيب ، وهو القوي الغالب لكل شيء ، ذو الحكمة البالغة . وهو سبحانه أرسل في العرب الأميين رسولاً منهم يقرأ عليهم آيات القرآن ، ويطهرهم من خبائث العقائد والأخلاق ، ويعلمهم القرآن والسنة ، وقد كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ منحرفين

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ
لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ

شرح المفردات

وآخرين منهم : كل لاحق بأصحاب النبي من المسلمين بعد ذلك من أي الأجناس كانوا .

لمَّا يلحقوا بهم : لم يدركوا عهد الرسول ولا عهد صحابته وسيجيئون بعدهم .

حُمِّلوا التوراة : أوتوا التوراة وكلفوا العمل بما فيها .

لم يحملوها : لم يعملوا بتعاليمها .

أسفاراً : جمع سِفْر وهو الكتاب الضخم .

بِئس مَثَلُ القوم : ساء هذا المثل الذي ضربه الله لهؤلاء اليهود .

هادوا : اتخذوا اليهودية ديناً .

تابع المعنى الإجمالي

عن الحق ، ضالين ضلالاً واضحاً .

ودعوة النبي ﷺ ليست مقصورة على العرب في زمنه ولكنها تشمل غير العرب من جميع الأجناس ، كما تشمل الأجيال اللاحقة ممن يجيئون بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وهو سبحانه القوي الغالب كل شيء ، ذو الحكمة البالغة في كل أفعاله ، وذلك الفضل الذي امتاز به محمد على جميع الأنبياء في عموم دعوته ، هو فضل من الله يؤتيه من يصطفيه من عباده ، وهو صاحب الفضل العظيم .

وهؤلاء اليهود الذين أُوتوا التوراة وكُلِّفوا العمل بما فيها ، ثم لم يعملوا بموجبها ، مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل كتباً علمية على ظهره ، لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها ، وقد ساء هذا المثل الذي ضربه الله لهؤلاء اليهود ، ولكن الله لا يوفق الظالمين إلى الهدى .

أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦
وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧ قُلْ إِنَّ
ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ
لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ

شرح المفردات .

أولياء الله : أصفياء الله وأحباؤه .
بما قدَّمت أيديهم : بسبب ما ارتكبوا من الذنوب والآثام .
عَالِمِ الغَيْبِ والشهادة : العالم بما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه .
نُودي للصلاة من يوم الجمعة : أذَّن المؤذن لصلاة الجمعة .
فَاسْعَوا إلى ذِكْرِ الله : فامضوا إلى الصلاة واستماع موعظة الإمام .

تابع المعنى الإجمالي

قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم أحباء الله من دون الناس جميعاً ، بأن يتمنّوا الموت إن كانوا صادقين في دعوى حُبِّ الله لهم وحبهم لله ، ولكن هؤلاء اليهود لا يتمنون الموت أبداً ، بسبب ما قدّموه من الكفر وسوء الأفعال ، والله عليم بالظالمين .

قل لهم يا محمد : إن الموت الذي تهربون منه فإنه ملاقيكم ، ثم ترجعون إلى الله تعالى المطّلع على ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم ، وما يشهدونه بها ، ويوم القيامة يخبرهم الله بما كانوا يعملون في الدنيا .

يا أيها الذين آمنوا إذا أَذّن المؤذن لصلاة الجمعة فامضوا إلى سماع الخطبة

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾
وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ
خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

شرح المفردات

وذروا البيع : اتركوا البيع والشراء .

فإذا قُضيت الصلاة : إذا أُديت الصلاة .

فانتشروا في الأرض : تفرقوا طلباً لقضاء حوائجكم .

وابتغوا مِن فضل الله : اطلبوا الرزق الذي تفضل الله به عليكم .

تُفلحون : تفوزون .

انفضوا : تفرقوا عنك .

قائماً : أي قائماً على المنبر تخطب خطبة الجمعة .

ما عند الله : ثواب صلاة الجمعة .

تابع المعنى الاجمالي

وأداء الصلاة واتركوا البيع والشراء ، ذلكم الذي أمرتم به أنفع لكم إن كنتم تعلمون . فإذا أدَّيتم الصلاة فتفرَّقوا في الأرض ، واطلبوا الرزق الذي تفضل الله به عليكم ، واذكروا الله واشكروه على ما هداكم ، لعلكم تفوزون بخيري الدنيا والآخرة . وقد كان بعض المسلمين عندما يبصرون ، أثناء خطبة الجمعة ، تجارة أو لهواً تفرّقوا لملاقاتها ، وتركوك يا محمد قائماً تخطب الجمعة وتعظ من بقي من المؤمنين ، بلِّغ يا محمد الذين تفرقوا عنك وانصرفوا الى تعاطي التجارة : أنَّ ما عند الله من الفضل والثواب أنفع لكم من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين ، فاطلبوا رزق الله بطاعته .

سُورَةُ الجُمُعَةِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تتوجّه إلى الأمة العربية زمن الرسول ﷺ بأن الله سبحانه شملها بفضله ، وأكرمها بمنته حيث اختار رسوله محمداً منها ليعلمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين ، وبذلك يرتفع شأنها على العالمين ، وإن هذا الاختيار يقتضي من هذه الأمة العرفان والشكر لله ، كما يقتضي أن تقوم بحمل الأمانة والتكاليف التي يطلبها الله منها .

وتعرض السورة بعد ذلك أن اختيار الله للعرب دون اليهود الذين كان الأنبياء منهم ، لأن اليهود تخلفوا عن الأمانة وتركوا العمل بأوامر الله .

ثم تنتقل السورة إلى مخاطبة المؤمنين بأن يلبوا نداء المؤذن لصلاة الجمعة ، فيتركوا البيع والشراء وسائر متطلبات الحياة آنذاك ، فللروح نصيب بالالتجاء إلى ربها ومناجاته وترك ما يعوقها عن ذلك ، كما للنفس نصيب لمتطلبات الجسد بعد الفراغ من الصلاة .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُ للَّهِ ما في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكيمِ ﴾ .

فكل ما في هذا الكون ينزه الله سبحانه عن السوء ، ويبرئه من العيب ويمجّده فهو سبحانه ﴿ المَلِك ﴾ أي المالك لما في السماوات والأرض ، المتصرّف فيهما بقدرته وهو ﴿ القُدُّوس ﴾ أي المطهر المنزه عن جميع العيوب والنقائص .

وهو أيضاً ﴿ العَزِيز الحَكيم ﴾ أي القوي الغالب كل شيء ، الحكيم في تصرفاته وأفعاله .

ثم يمتنّ الله على العرب برسالة محمد ﷺ التي أنقذتهم من ضلال الكفر :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

﴿ هُوَ ﴾ أي الله سبحانه ، الذي ﴿ بَعَثَ ﴾ أي أرسل ﴿ في الأُمِّيِّينَ ﴾ هم العرب فقد كانوا لا يكتبون ولا يقرأون في مجملهم . والمراد بقوله تعالى : ﴿رَسُولاً مِنْهُم﴾ هو محمد ﷺ الذي كان من جنسهم ونسبهم ، وكان أمياً مثل قومه لا يقرأ ولا يكتب ﴿ يَتْلُو عليْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن الكريم التي أنزلها الله عليه ﴿ وَيُزكِّيهِمْ ﴾ أي يصلحهم ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب ، فهو تطهير يشمل كل شيء في حياتهم ، ففي الجانب النفسي يطهر ضمائرهم وأرواحهم ، وفي الجانب العملي يطهر معاملاتهم من الغش والخداع والنفاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ ﴾ والمراد بالكتاب هو القرآن الكريم وما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه . أما الحكمة فهي سنة النبي ﷺ ، وما حوته من الفقه في الدين وروائع الحِكَم .

فأُميَّة النبي ﷺ آية على صدق نبوته وآية على أن القرآن وحي إلّهي ، فمحمد ﷺ نشأ أمياً بين قوم أميين ، لم يقرأ ولم يكتب ولم يتتلمذ على أحد ، ولا قال شعراً ، ولا عرف شيئاً من شرائع الأمم وأديانها بواسطة القراءة والكتابة ، ولو ثبت عنه شيء من ذلك لنقله أتباعه ، الذين عنوا برواية كل ما علموه وما سمعوه في شأنه ـ قبل النبوة وبعدها ـ أو لأذاعه أعداؤه ليكون حجة لهم في إنكار نبوته ، وهذا ما لم يحصل قط . ثم لما بَلَغَ النبي

محمد ﷺ من العمر أربعين سنة قام بالدعوة إلى الإسلام، وأيَّد نبوته بالقرآن، الذي اشتمل على أخبار الغيب الماضية والمستقبلة ، وأسمى قوانين الأخلاق ، والعبادات الجامعة بين المنافع الروحية والجسدية ، وأعدل قواعد الشرائع السياسية ، وقد جاء النبي ﷺ قومه بهذا الهدى ، بعد أن كان ينطبق عليهم وصف القرآن ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

نعم لقد كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال ما بعده من ضلال ، ندع وَصْفَهُ إلى جعفر بن أبي طالب حينما هاجر إلى الحبشة ، مع جماعة من المسلمين فراراً من أذى قريش ، فأرسلت قريش وفداً إلى النجاشي تطلب منه ردّ المهاجرين إلى مكة ، ولكن النجاشي رأى قبل أن يُسَلِّم هؤلاء المهاجرين إلى قريش أن يستطلع دينهم ومعتقداتهم ، فكان الذي كلّمه في ذلك جعفر بن أبي طالب الذي قال :

« أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي مِنَّا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصِدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدّد له تعاليم الإسلام) فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الملّة ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ،

وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائِثْ ، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك. . .» . ثم قرأ عليه صدراً من سورة مريم فتأثر النجاشي مما سمع ودمعت عيناه ، ورفض تسليم المسلمين إلى قريش .

ثم لنرجع إلى متابعة السورة فيذكر الله أن أمماً غير العرب ستدخل بالإسلام :

﴿ وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

فالمراد بـ (الآخرين) سوى العرب من الأمم والأجناس الذين سيدخلون في الإسلام، ومعنى ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾[1] أي لم يدركوا النبي ﷺ ولا صحابته ، ولكن سيجيئون بعدهم ، وسيلحقون بهم باتِّبَاعِ الإسلام .

في هذه الآية معجزة من معجزات القرآن وذلك بالإخبار عن أنباء غيبية ستقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام ، وهذا ما قد حصل بعد سنين قلائل من موت النبي ﷺ .

هذه الأخبار عن انتشار الإسلام وتحقق وقوعها لا يمكن أن يعلنها إنسان ما من ذاتية نفسه ، مهما بلغ به الحماس لدعوته بدون أن تكون وحياً إلّهياً ،

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة (الجمعة) وفيها قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال : قلت : من هم يا رسول الله ، فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي . فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال ـ أو رجل ـ من هؤلاء » . هذه الآية تدل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس لأنه فسّر قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم ﴾ بفارس ، ولهذا ترى النبي بعد فترة قصيرة كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهما يدعوهم إلى الإسلام . والثريا : هي مجموعة من الكواكب ، أي لو كان الإيمان بعيداً بعد الكواكب لذهبوا إليه حتى ينالوه . لشدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه .

لأن كل صاحب دعوة حريص على نجاح دعوته ، وإن أقل وَعْدٍ يقطعه على نفسه ويخبر به أعوانه ، إذا كتب له الإخفاق ، سيكون دافعاً للقضاء على دعوته ، وانفضاض متبعيه من حوله . أما محمد ﷺ فقد جاء بالقرآن الذي يحتوي على عشرات النبوءات بانتصار الإسلام وانتشاره ، وقد تحقق ذلك بعد سنين قلائل من نزول القرآن .

وبعد هذا يبيّن القرآن بأن رسالة النبي ﷺ هي فضل من الله :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ .

ففضل الله هو الهداية إلى الإسلام ، فيكون المعنى : إن الله أرسل في الأميين رسولاً منهم ليهديهم كما يهدي به أناساً آخرين يلحقون بهم فيما بعد ، وهذه الهداية فضل من الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم على عباده حيث أنزل الشرائع لإصلاح أمورهم . وقد يراد بفضل الله (النبوة) ويكون المعنى : إن النبوة فضل من الله يعطيها من يشاء ويختار مِنْ عباده مَنْ يؤهله لتحمل هذه الرسالة .

ثم ينتقل القرآن إلى ذمّ اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة(١) .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

---

(١) أطلق القرآن على كتب اليهود المقدسة (التوراة) وهذه الكلمة من أصل عبراني ، وقد اختلف العلماء في تعيين حدود التوراة فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار ، ويرى البعض الآخر أنها أكثر من ذلك وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات . وليس في القرآن تحديد لأسفار التوراة ولكن اقترن اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير إلى أن المراد بها ما يقال له بـ (الأسفار الخمسة) وهي الأسفار المنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى .

شبه القرآن عدم انتفاع اليهود بما في أيديهم من الهدى بالحمار الذي لا يعقل ، ثم يبرز هذا التشبيه بروعة ووضوح حين يقرر أن هؤلاء اليهود وقد ﴿ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ أي كلفوا العمل بما فيها من أحكام ولكنهم ﴿ لَمْ يَحْملوهَا ﴾ أي لم يعملوا بموجبها ولم يؤدُّوا حقها ، فمثلهم كمثل الحمار الذي ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ أي يحمل على ظهره كتباً ضخمة من كتب العلم لا ينتفع بها ، ولا يدري مما ضمته شيئاً ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال ، فليس له مما يحمل من حظ غير التعب .

فهذا المثل وإن ضرب على جماعة من يهود هجروا التوراة فإنه في الوقت نفسه تذكير للمسلمين بألا ينهجوا نهجهم فينطبق عليهم هذا المثل .

ويعقب الله على ذلك قوله : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِين كَذَّبُوا بآيَاتِ اللهِ ﴾ أي ما أقبح هذا مثلاً لهم لتكذيبهم بآيات القرآن التي جاءت على لسان نبيه محمد ، وقيل المراد من الآيات آيات التوراة ، لأنهم كذَّبوا بها حين تركوا الإيمان بنبوة محمد ، في الوقت الذي تحتوي هذه التوراة على بشارات بنبوته . ويختم الله الآية بأنه لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب بسبب هذا التكذيب .

وبعد هذا يردُّ القرآن على ادعاءات اليهود بأنهم أصفياء الله وأحباؤه من دون سائر الناس :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُم أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ .

عبّر القرآن عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بالذين (هادوا) كما عبر عنهم أيضاً بلفظ (هوداً) و (بني إسرائيل) .

ففي قوله تعالى : ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ إشارة إلى أنانية اليهود فهم يريدون احتكار ولاية الله لهم كجنس مفضل مختار ، وهذا لا يمكن أن يصح ، لأن الله هو رب العالمين وليس رب اليهود فقط . ثم يتحداهم الله أن يتمنّوا الموت ، لأنهم إن كانوا أولياء لله وأَحباءه من دون الناس ، فما يخيفهم إذن من الموت ؟ وهم حين يموتون ينالون عند الله ما يلقاه الأولياء المقربون . لقد تحداهم الله بذلك إظهاراً لكذبهم ، فإنهم كانوا يقولون : ﴿ نَحنُ أَبنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤه ﴾ المائدة : ١٨ . ويدّعون أن نعيم الآخرة خاص بهم : ﴿ وَقَالوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً ﴾ البقرة : ١١١ . وهم أبعد الناس عن تمني الموت ، ولقد علل القرآن عدم تمنيهم الموت بأنهم يعرفون أنفسهم أنهم عاصون لله ، مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة . وهذا الموت سيلاقيهم كما سيلاقي كل حي على هذه الأرض ، ثم يرجعون بعد مماتهم إلى ربهم . فهو سبحانه ﴿ عَالِم الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فهو يعلم ما يغيب عن العباد وما يشهدونه ﴿ فَيُنَبئكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يخبركم بما كنتم تعملون من الكفر والمعاصي فيجازيكم عليها .

ثم ينتقل القرآن إلى دعوة المؤمنين لتلبية المؤذن عندما يدعو إلى صلاة الجمعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمنوا إذا نُودِيَ للصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ إذا نُودِيَ للصَّلاَةِ ﴾ المراد بالنداء الأذان

الذي يُنادى به أمام الخطيب وهو على المنبر ولم يكن في عهد رسول الله أذان سواه ، فقد كان النبي ﷺ إذا جلس على المنبر أذن بلال على باب المسجد ، وكذلك كان على عهد أبي بكر وعمر ، فلما كثر الناس على عهد عثمان أمر بالأذان على دار بالسوق يقال لها الزوراء كي يجتمع الناس ، وكان إذا جلس الإمام على المنبر أذّن المؤذن أيضاً بين يديه ، فيكون الأذان عند جلوس الإمام هو الأذان الثاني .

وصلاة الجمعة فرض ثابت وهي ركعتان تصلى جماعة ، ووقتها هو وقت صلاة الظهر(١) .

أما العدد الذي تنعقد به صلاة الجمعة فقد ذهب العلماء في ذلك إلى مذاهب متعددة ، فقيل : يشترط أن لا يقل العدد عن أربعين(٢) ، والأفضل في صلاة الجمعة أن تضم أكبر جمع ممكن من المسلمين .

و (يوم الجمعة) سمي بهذا الاسم لأنه يوم الاجتماع ، فإن المسلمين يجتمعون فيه كل أسبوع مرة بالمساجد الجامعة لصلاة الجمعة ، وقيل سمي بذلك لأنه اليوم الذي كمل فيه جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض .

ويوم الجمعة له ميزة على بقية الأيام فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، ففيه خلق آدم ، وفيه أُدخِلَ الجنة ، وفيـه أُخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلّا في يوم الجمعة » .

---

(١) وهو من وقت زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الاستواء .

(٢) هذا ما ذهب إليه الشافعية والحنابلة ، ويرى المالكية أن أقل عدد تنعقد به الجمعة اثنا عشر رجلاً عدا الإمام ، وقال الحنفية تنعقد الجمعة بثلاثة غير الإمام .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي دعوا التجارة في ذلك الوقت ، ولا يجوز البيع في وقت النداء لصلاة الجمعة والخطبة ووقت الصلاة ، ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، وقال الإمام الشافعي : إن البيع لا ينعقد . .

ولنقف قليلاً عند قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ففي هذا النص القرآني بيان بأن لصلاة الجمعة فوائد يعود خيرها على جماعة المؤمنين .

ولا بد من الإشارة إلى أن فوائد الجمعة يندرج فيها الفوائد التي تستفاد منها صلاة الجماعة[1] بصورة عامة ، وسنذكر بعض هذه الفوائد التي تعود للجمعة والجماعة معاً لأنها متداخلة .

١) صلاة الجماعة شرعت وسيلة لتعارف المؤمنين ، وإزالة الفوارق الاجتماعية فيما بينهم ، وتبادل المنافع فيما يعود عليهم من خير ، فالمسلمون يقفون جميعاً في الصلاة جنباً إلى جنب متلاصقين ، رئيس الدولة يقف إلى جانب أي فرد من أفراد الشعب ، ويقف الغني ملاصقاً للفقير ، وأبيض البشرة إلى جانب أسودها ، كل هؤلاء يتقربون إلى الله . إن الدعوة إلى المساواة والإخاء البشري لا تخرج عن كونها نظريات إذا لم تطبق في حياة المرء وتفكيره ، وهكذا طبقها الإسلام في صلاة الجمعة وصلاة الجماعة .

٢) الصلاة من أهم أهدافها (الإيحاء) للإنسان بالصفات الخيّرة ، وهناك عوامل شتى توفر إمكانية الإيحاء في علم النفس ، هي : العدد ،

---

(١) صلاة الجماعة هي فرض في صلاة الجمعة وسنة في غيرها .

والتنوع ، والمكان . فاجتماع عدد من الناس ثم تنوعهم ما بين شيوخ وشباب من كل الفئات ، ثم وجودهم في بناء واحد ذي مهابة لا يرغم هؤلاء على الاحترام فحسب لكن يجعل معظم الناس يتأثرون سريعاً بالإيحاء الباعث على المهابة لله وتوطين النفس على الخير .

٣) صلاة الجمعة من شروط صحتها خطبتان ـ يفصل بينهما جلسة قصيرة ـ وأن تتقدما على الصلاة ، يلقيهما الخطيب قبل صلاة الجمعة ، يحث المصلين فيهما على البر والتقوى والتحلي بالصفات الخيِّرة التي ترضي الخالق ، ويحذرهم من الإثم والفجور وسائر أعمال السوء التي تغضب رب العالمين ، كل ذلك له أثره الفعال في سلوك الإنسان وتغيير مسرى حياته من سيء إلى أحسن .

٤) وبالإضافة إلى ما ذُكر فإن اجتماع المسلمين في المسجد راغبين في الله راجين رحمته يسبب في نزول البركات والرحمات من الله ، ولذلك يُسن الدعاء في خطبة الجمعة حيث يدعو الخطيب ، ويؤمّن على دعائه المصلون رجاء الاستجابة .

ثم يبين القرآن ما يستحسن عمله بعد أداء صلاة الجمعة :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا في الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، واذْكُرُوا اللَّهَ كَثيراً لَعلّكم تُفْلِحُونَ ﴾ .

أي إذا فرغتم من الصلاة فتفرقوا لأداء مصالحكم الدنيوية ، واسعوا في طلب الرزق ، واذكروا الله كثيراً حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم ، وإذا ذكر الإنسان ربه حين بيعه وشرائه ، وحين تعامله مع الغير ، فلا يظلم ، ولا يغش ولا يكذب ، ولا يعتدي على أحد ﴿ لَعَلّكُم تُفْلِحُونَ ﴾ أي لعلكم

تفوزون بالفلاح في دنياكم وآخرتكم .

ثم تختتم السورة بالتعريض بفريق من المسلمين تركوا النبي يخطب على المنبر يوم الجمعة منصرفين إلى قافلة تجارية قَدِمَت المدينة وقد سمعوا صوتها وضجيجها وما يصحبها من ضرب على الطبول إيذاناً بقدومها على عادة عرب الجاهلية ، لقد خرجوا إليها ولم يبقَ مع رسول الله إلّا اثنا عشر رجلاً فنزل قوله تعالى :

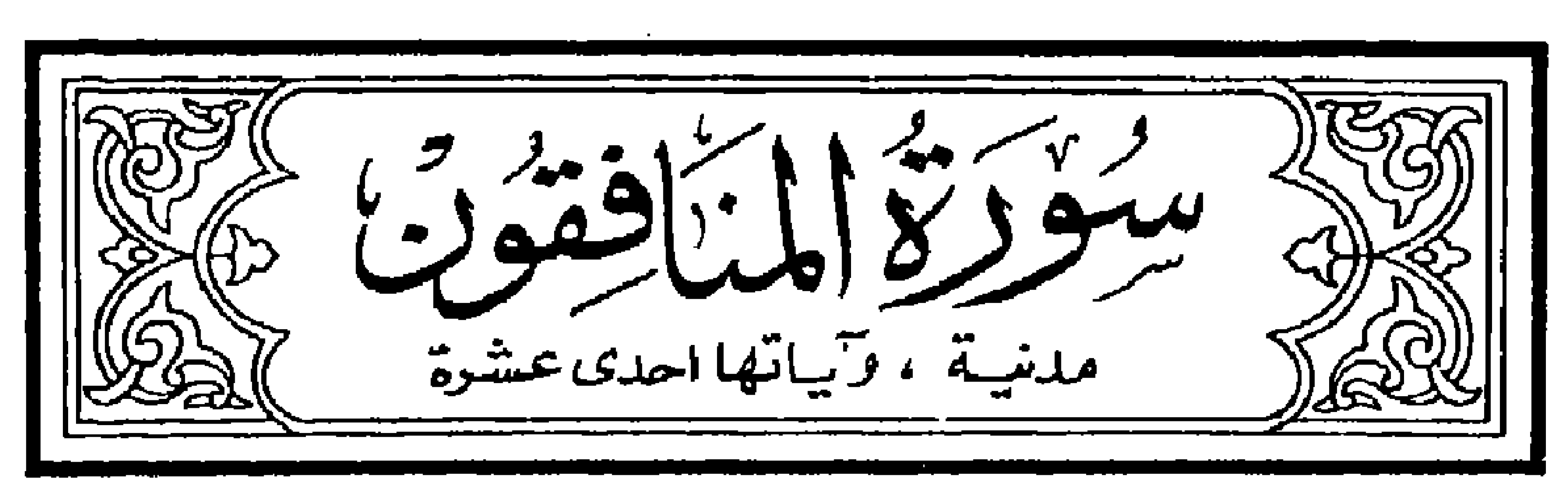
﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ واللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

فالله سبحانه يقول مخاطباً نبيه ومعرضاً بأولئك الذين تركوه قائماً يخطب على المنبر منصرفين إلى قافلة التجارة : إذا رأى هؤلاء تجارة أو لهواً تفرقوا عنك وانصرفوا إليها وتركوك قائماً تخطب على المنبر ، فقل لهم إن ما عند الله من الثواب والأجر العظيم خير من اللهو ومن ربح التجارة ﴿ واللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي إن كنتم تخشون ذهاب ربحكم وبوار تجارتكم في وقت صلاة الجمعة فإن الله سيرزقكم خيراً من ذلك لأن الله خير الرازقين فإنه يرزق دون حساب ودون مقابل .

ولقد كان لانصراف بعض المسلمين أسباب منها : أنهم كانوا في ضيق وغلاء العيش ، وكان مع القافلة ما يحتاج إليه الناس من بُرّ(١) ودقيق وغيره ولقد ظن من في المسجد أنه ليس في ترك الخطبة إثم ، وإنما الإثم في ترك الصلاة ، فلما نزلت الآية لم يعد أحد منهم يترك الرسول وهو يخطب .

---

(١) برّ : قمح .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ
جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ

شرح المفردات

المنافقون : هم الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر .

نشهد : نقرّ ونعترف ونحلف .

أيْمَانهم : جمع يمين وهو القسم .

جُنَّةً : وقاية لأنفسهم من القتل .

فصدّوا عن سبيل الله : أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله وصرفوا الناس عن الإسلام .

ساء : قَبُحَ .

ذلك : أي ما ذُكر من الصد عن سبيل الله وقبح الأعمال .

المعنى الإجمالي

إذا جاء المنافقون إلى مجلسك يا محمد قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك رسوله حقاً ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في دعواهم الإيمان بك لعدم تصديقهم رسالتك بقلوبهم ، ولأنهم أضمروا غير ما أظهروا .

إنهم يكثرون من القسم بأنهم مؤمنون، متخذين من ذلك وقاية حتى لا تنكشف حقيقتهم ، وهم بذلك قد أعرضوا عن طاعة الله فقبحت أعمالهم وما يخفون من النفاق .

بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ
مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ
اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ

شـرح المفـردات

فَطُبِعَ على قلوبهم : خُتم على قلوبهم بالكفر .

لا يفقهون : لا يفهمون الإيمان ولا يتدبرون القرآن .

تُعْجِبك أجسامهم : تعجبك هيآتهم ومظاهرهم لما فيها من النضارة والرونق .

خُشُبٌ مُسنَّدة : خشب مستندة إلى جدار ، فهم أجسام بلا عقول .

فاحذرهم : لا تأمنهم على سرك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار .

قاتلهم الله : لعنهم الله وطردهم من رحمته .

أنّى يُؤفكون : كيف ينصرفون عن الحق إلى الكفر .

تابع المعنى الإجمالي

هؤلاء المنافقون أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وأخفوا الكفر في قلوبهم ، فختم الله بذلك على قلوبهم ، وجعل عليها غشاوة فحرمها نعمة الإيمان ، فهم لا يفهمون ما ينجيهم من عذاب الله .

وإذا رأيتهم تعجبك مظاهر أجسامهم وهيآتهم لما فيها من النضارة والرونق ، وإن يتكلموا تسمع لحديثهم لحلاوته وفصاحته، ولكنهم أجسام بلا عقول ، فهم في الواقع كالأخشاب المسندة إلى جدار لا حياة فيها، وهم لخوف افتضاح أمر نفاقهم يظنون كل صوت أو نداء في أمر من الأمور موجهاً إليهم يكشف أستارهم ، هؤلاء هم ألد أعدائك فاحذرهم ولا تأمنهم على سرّ ، لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فكيف ينصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من النفاق .

لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ
ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

شرح المفردات

لَوَّوْا رؤوسهم : حركوا رؤوسهم استهزاء وإباء .

يصُدُّون : يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان .

الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله .

على مَنْ عِنْدَ رسول الله : هم فقراء المهاجرين .

حتى ينفَضُّوا : حتى يتفرقوا عنه .

الأَعَزُّ : الأقوى ، يقصد المنافقون بذلك أنفسهم .

الأَذَلَّ : الأضعف يقصد المنافقون بذلك النبي ومن معه من المؤمنين بزعمهم .

ولِله العِزةُ : الغلبة والمنعة .

تابع المعنى الإجمالي

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين : أقبلوا إلى النبي ليستغفر لكم ذنوبكم مالوا برؤوسهم استهزاء ، ورأيتهم يعرضون وهم مستكبرون عن الامتثال ، واستغفارك لهم يا محمد ، وعدم استغفارك سيّان لا يجديهم نفعاً ، لإصرارهم على النفاق ، والله لا يهدي القوم الخارجين على طاعته .

هؤلاء المنافقون كانوا يقولون للأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله من المهاجرين الفقراء حتى يتفرقوا عنه ، ولكن ما أشد جهلهم ! ألا يعرفون أن خزائن

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا
مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي
إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ
نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

شَرح المفردَات

أنفقوا مِمَّا رزقْنَاكم : أنفقوا بعض ما رزقكم الله من أموال .

يأْتي أحدكُم الموتُ : ينزل الموت بأحدكم برؤ ية علاماته .

لَوْلا أخَّرتني إلى أجل قريب : هلّا أجلت موتي إلى وقت قريب .

فأصَّدَّقَ : فأتصدق .

جاء أجلها : حان وقت موتها .

تابع المعنى الإجمَالي

السماوات والأرض بيد الله ، يعطيها من يشاء ، ولكن المنافقين لا يفهمون هذه الحقائق . ويقول المنافقون متوعدين المؤمنين : والله لئن رجعنا إلى المدينة بعد هذه الغزوة لنخرجنكم منها لأننا الأقوياء الأعزاء ، وأنتم الضعفاء الأذلاء ، ولكن فات هؤلاء بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون .

يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله لا تشغلكم العناية بأموالكم وأولادكم عن ذِكْرِ الله ، وأداء ما فرضه عليكم ، ومن تشغله أمواله وأولاده عن ذلك فأولئك هم الخاسرون يوم القيامة . وأنفقوا ـ أيها المؤمنون ـ بعض ما رزقكم الله في سبيل الخير من قبل أن تأتي أحداً منكم بوادر الموت ، فيقول عندئذٍ نادماً : رب ليتك تؤخّر موتي قليلاً حتى أتصدّق وأكون من عبادك الصالحين . ولكن الله لن يؤخِّر الموت عن نفس حان وقت موتها ، والله عنده العلم الشامل بما تعملون فيجازيكم على عملكم .

سُورَةُ المنَافِقُونَ

ايضــاح و دروس

النفاق هو اختلاف السرّ والعلانية ، أو اختلاف القول والعمل ، وهو نوعان : نوع يكون في العقائد وهو أشده وأخطره ، ونوع يكون في الأقوال والأعمال وهو دونه إثماً .

ولقد تحدّث القرآن الكريم عن نوع خاص من النفاق ، وهو النفاق في العقيدة ، أي أن يظهر الإنسان الإيمان ويبطن الكفر ، كما تحدث القرآن عن أسلوب المنافقين سواء في السلم أو في الحرب ، من حيث نشر الإشاعات الكاذبة بقصد التشكيك ، وإضعاف الروح المعنوية ، وزعزعة الإيمان وإثارة اليأس في القلوب .

والنفاق مدعاة لاقتراف الأخلاق الذميمة : كالرياء والخداع والمداهنة والغدر ، والكذب ، والخيانة ، وهي أوصاف ألصقها الله بالمنافقين ، وهي آفات تفتك بجسم الأمة ، لهذا حارب الإسلام النفاق في كثير من سُوَرِ القرآن ، وبيَّن فيها صفات المنافقين ، وعاقبتهم يوم القيامة ، مشدّداً النكير عليهم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المنَافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ النساء : ١٤٥ . كما أفرد لهم سورة خاصة تُدعى سورة (المنافقون) وهي ما نحن بصددها .

وهذه السورة نزل معظمها في كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول وأشباهه الذين خرجوا مع النبي إلى غزوة بني المصطلق لا رغبة في الجهاد ، ولكن طلباً للغنيمة ، فلما انتهت الغزوة وانتصر فيها رسول الله أقبل رجلان لاستقاء الماء أحدهما يُدعى سِنان وهو حليف لعبد الله بن

أُبيّ ، والآخر يُدعى جهجاه وهو أجير لعمر بن الخطاب ، فازدحما على الماء وتشاجرا ، فلطم جهجاه سِنان على وجهه فأدماه ، فنادى سِنان : يا آل الخزرج فأقبلوا ، ونادى جهجاه يا آل قريش فأقبلوا ، وكادت تحدث مجابهة بينهما ، فأصلح الأمرَ قومٌ من المهاجرين ، فبلغ الخبر عبد الله بن أُبيّ فقال وعنده جماعة من المنافقين : والله ما مثلكم ومثل هؤلاء الرهط من قريش إلّا مثل ما قال الأوّل : سمّن كلبك يأكلك ، ولكن هذا فعلكم بأنفسكم ، آويتموهم في منازلكم ، وأنفقتم عليهم أموالكم فقووا وضعفتُم ، وايم الله : لو أمسكتم أيديكم لتفرقت عن هذا « أي النبي » جموعه . ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [يريد بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله] وكان في القوم زيد بن الأرقم وهو غلام لم يبلغ الحلم فأقبل على رسول الله وأخبره الخبر ، فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أُبيّ فأتاه ، فقال رسول الله : أنت صاحب هذا الكلام ؟ فقال : والذي أنزل عليك ما قلت شيئاً من هذا ، وإن زيداً لكذّاب ، فقال من حضر من المسلمين : لا يصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وَهِمَ ، فعذره رسول الله ، وفشت الملامة من الأنصار لزيد وكذبوه وقال له عمه : ما أردت إلّا أن كذبك رسول الله والمسلمون ومقتوك . . . ثم أنزل الله بعد ذلك سورة (المنافقون) في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أُبيّ . ولما قيل لعبد الله بن أُبيّ إنه قد نزلت فيك آيات شداد فاذهب إلى رسول الله ليستغفر لك لوى رأسه وأعرض واستكبر عن الذهاب إلى رسول الله .

هذا ما جاء في أسباب نزول هذه السورة نقلناه باختصار ، ولننتقل إلى عرض وتحليل آياتها .

يقول تعالى مستهلاً هذه السورة بكشف كذب المنافقين :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ ، واللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يخاطب نبيه : إذا جاءك المنافقون وقالوا لك : نقر ونعترف أنك رسول الله ، فإن قولهم هذا كاذب لأنهم يضمرون غير ما يظهرون ، وإنك يا محمد غني عن شهادتهم ، لأن الله يشهد شهادة علم إنك لرسوله ، ويشهد إن المنافقين كاذبون فيما شهدوا ، وإن كانت شهادتهم مطابقة للواقع .

ثم بيَّن الله أنهم يحتالون بكل قسم من أجل تصديق الناس لهم بأنهم مؤمنون :

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فالأيْمان جمع يمين وهو القَسَم ، فقد كانوا يقسمون بأنهم مؤمنون ، ويتخذون من هذا القسم جُنَّةً أي وقاية تقيهم ما يخافون على أنفسهم من القتل[1] . ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله ، وصرفوا الناس عن الدخول في دين الله . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهل أسوأ من الكذب والخداع والضلال .

ويبين الله أيضاً حقيقة نفاقهم :

(١) الجُنَّةُ : هي الدرع التي يلبسها المقاتل ليتقي بها بأس الأعداء ، ومن دقة التعبير القرآني تصوير أنهم لا يلتمسون مجرد ساتر كالثوب مثلاً ، وإنما يشعرون بأنهم في حرب نفسية ، وأنهم في حاجة إلى شيء يسترون به ما في أنفسهم بشرط أن يكون من أدوات الحرب ، فاختار القرآن تعبير الجُنَّة ليكون مطابقاً لما في نفوسهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمنوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

فهم قوم عرفوا الإيمان ولكنهم اختاروا الكفر ، أو أنهم آمنوا ظاهراً بوجه المؤمنين ثم إذا انصرفوا إلى قومهم أظهروا لهم الكفر . ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خُتم على قلوبهم فلا تهتدي إلى حق ، ولا يصل إليها خير ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون القرآن ولا يميزون بين نور الإيمان وظلام الكفر .

ويصف الله بعض سمات المنافقين وتصرفاتهم كي لا ينخدع بها المؤمنون :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفكُونَ ﴾ .

فهؤلاء المنافقون كان فيهم أقوام صباح الوجوه ، أشداء البنية ، فصحاء الألسنة ، فإذا تكلموا أعجبوا السامع بكلامهم المعسول ، ولكن دخيلة نفوسهم لا توافق ظواهر أجسامهم ، فهم أجسام بلا عقول ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ يشبههم الله بالأخشاب المسندة إلى الجدران فهي خالية من الحياة لا تفهم ولا تعلم ، وما أروعه من تشبيه .

وهم أيضاً لسوء طويتهم وممارستهم النفاق يعرفون أنهم يتسترون بثوب رقيق شفاف يشف عما تحته ويكشفهم على حقيقتهم ولذلك ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ هم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح ، وأسرارهم قد انكشفت . والتعبير القرآني يرسمهم أبداً متلفتين حولهم ، يخافون من كل حركة ، ومن كل صوت يحسبونه يطلبهم وقد عرف حقيقة

أمرهم ، ﴿ هم العَدُوُّ ﴾ الكامن داخل المجتمع الإسلامي ، وهو أخطر من العدو الخارجي لأنه يفكّك وحدة المجتمع ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ دعاء عليهم من الله بالطرد من رحمته والخزي ﴿ أَنَّى يُؤْفكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والكفر .

ويتحدث القرآن عن فقدان الأمل في أن يصبحوا مؤمنين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾ .

فهم إذا طُلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ليطلب الغفران لهم من الله على ما اقترفوا من الذنوب ، وقد انكشف أمرهم ﴿ لَوّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ أي حركوها استهزاء من طلب المغفرة ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكبِرُونَ ﴾ أي يعرضون استكباراً . وإن استغفارك يا محمد لهؤلاء المنافقين وعدمه سيّان فهو لا يجديهم نفعاً ، فالله لن يغفر لهم ، لأنه سبحانه لا يهدي القوم الخارجين عن طاعته .

كما يكشف القرآن عن مخططات المنافقين لإضعاف المسلمين :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ، وَللَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ .

فهؤلاء المنافقون يقولون للأنصار : لا تنفقوا على محمد وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم حين يعضهم الجوع بنابه ، إنها حرب اقتصادية أثاروها ضد المسلمين وغالبيتهم من الفقراء ، كما تفعل أخبث وأخطر الوسائل التي توجه اليوم ضد بعض الشعوب الفقيرة لدوام السيطرة

عليها ، ولكن القرآن يسخر من خطتهم ، ويملأ قلوب المؤمنين يقيناً بفشل مخططات المنافقين ﴿ وللَّهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ﴾ فهو سبحانه الرزاق لهؤلاء المسلمين المهاجرين ، وخزائن الرزق بيده لا بيدهم ، وهو يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، والمنافقون ﴿ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون هذه الحقيقة لجهلهم سنن الله في خلقه ، وأنه سبحانه لا يمنع الرزق عمن يجاهر بعصيانه فكيف بأوليائه .

وبعد هذا يرد الله على وعيد كبير المنافقين بإخراج النبي ذليلاً من المدينة :

﴿ يقُولونَ : لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، وَللَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

القائل هذا القول هو عبد الله بن أُبيّ وقد قصد بالأعز نفسه ومن معه من المنافقين ، كما قصد بالأذلّ رسول الله ومن معه من المؤمنين . ومراده بالرجوع رجوعهم إلى المدينة بعد تلك الغزوة التي ساروا فيها مع الرسول بقصد الغنيمة .

ولنقف قليلاً عند قوله تعالى : ﴿ وَللَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤمنينَ وَلَكِنَّ المنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فعزة الله تعني قهره وغلبته لأعداء دينه ، والعزة لرسوله[1] نصر الله له وإظهار دينه على الأديان كلها ، والعزة للمؤمنين نصر

---

(١) روي أنه لما قفل الناس راجعين إلى المدينة وقف ابن عبد الله بن أبي على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله فإنه العزيز وأنت الذليل ، فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له الرسول فقال الابن : أما اذا أذن لك رسول الله فجز الآن .

(١) رواه أبو داود وابن ماجة .

الله إياهم على أعدائهم . هذه الآية من الأمور الغيبية التي تحققت بعد زمن وجيز من نزولها ، فقد نزلت هذه الآية والإسلام في مهده والمسلمون مستضعفون مضطهدون فلم تمض سنوات قلائل حتى انتصر رسول الله على جميع أعدائه ، وتمت له السيطرة على كامل جزيرة العرب ، وبعد وفاته تمت الفتوحات العظيمة على يد خلفائه الراشدين فقوّضوا امبراطوريتي : فارس والروم وتوغلت جيوش المسلمين في فتوحاتهم إلى حدود فرنسا ، لقد تمّت هذه الفتوحات العظيمة على يد المؤمنين الحقيقيين الذين كانت حياتهم مصداق هذه الآية الكريمة : ﴿ إنَّما المؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم في سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقونَ ﴾ الحجرات : ١٥ .

ثم لما ضعُفَ الإيمان في قلوب المسلمين وانتابتهم الفرقة وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة ضعفوا وذلوا وطمع فيهم كل غريب .

ثم يختم الله هذه السورة بتحذير المؤمنين من كل ما يلصق بهم من صفات المنافقين من الغفلة عن ذكره اشتغالاً بالأموال والأولاد ، والتقاعس عن الصدقات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون ﴾.

فالذين تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله هم الخاسرون ، الذين يخسرون نعيم الآخرة، ويخسرون طمأنينة النفس التي تنبعث من ذكر الله ، كما قال تعالى : ﴿ ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ الرعد : ٢٨ . وذكر الله

يشمل الصلاة أيضاً .

والمجتمع الذي يغفل عن ذكر الله هو المجتمع الخاسر ، لأن الغفلة عن الله سبب في اقتراف الآثام واستفحال الإجرام ، بينما الذين يذكرون ربهم ، ويخشعون لعظمته تلين قلوبهم فلا يصدر عنهم إلّا كل خير .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ ﴾ فالله يذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي بين أيديهم فهو من عند الله أودعهم إيّاه ، وأمرهم بأن ينفقوا جزءاً منه على الزكاة وصدقة التطوّع ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموْتُ ﴾ أي قبل أن يفارق أحدكم هذه الحياة وعندها سيترك كل ما جمعه من أموال ويرى أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ﴿ فَيَقُولُ : رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يتمنى على ربه أن يؤجل موته أمداً قصيراً وهو تمنٍّ يُشعر بالندم الشديد على ما فات ، وهو يتمنى ذلك ليعوض ما فاته من العمل الصالح ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي لأتصدق واعمل بطاعتك وأؤدي فرائضك ، ولكن الجواب يأتيه : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ فالله سبحانه لا يؤخر منيّة إنسان حضر أجله وانقضى عمره ﴿ واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه شيء فيجازيكم بأعمالكم .



بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ

شرح المفردات

يُسبِّح لله : يقدس الله وينزهه عما لا يليق بشأنه .

له الحمد : له المدح والشكر .

بصير : عليم مطلع .

المعنى الإجمالي

ينزه الله عما لا يليق بجلاله ويقدّسه كل ما في السماوات وما في الأرض ، وهو وحده مالك التصرف في كل ما في هذا العالم ، وهو المستحق للحمد والشكر من عباده ، وهو سبحانه عنده القدرة التامة على صنع كل شيء .

وهو سبحانه الذي تفرّد بخلقكم من العدم ، فمنكم أيها الناس منكر لألوهيته ، ومنكم مُصدّق بها ، والله بما تعملون بصير فيجازيكم على أعمالكم .

وهو سبحانه خلق السماوات والأرض بالحكمة البالغة ، ولم يخلقها عبثاً ، وخلق الإنسان في أكمل صورة ، وأبدع منظر ، ومرجعكم في الآخرة إليه وحده ليحاسبكم على الشكر والكفر . وهو سبحانه يعلم كل ما في السماوات وما في

وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤ أَلَمۡ
يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ
يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦

شـرح المفـردات

عليمٌ بذات الصدور : عالم بما يجول بنفوسكم من الخواطر والمعتقدات .

نَبَأُ : خبر .

وَبَالَ أمرهم : العاقبة السيئة لكفرهم .

بالبيّنات : بالحجج الواضحات .

أَبَشَرٌ يهدوننا : استنكار منهم أن يكون الرسل من البشر .

تولَّوْا : أعرضوا عن الإيمان .

واستغنى الله : استغنى الله بسلطانه عن إيمانهم وعبادتهم .

غني حميد : غني عن جميع خلقه ومحمود على كل حال .

زعم : ادعى كذباً .

تابع المعنى الإجمالي

الأرض ، ويعلم ما تُخفون وما تُعلنون ـ أيها الناس ـ من أقوال وأفعال ، وما تضمره نفوسكم .

هل بلغكم ـ أيها الكفار ـ خبر ما حصل للأمم قبلكم حين كفرت بأنبيائها كقوم نوح ومن بعده ؟ فعاقبهم الله على كفرهم في الدنيا بالذل والهلاك ، ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم . ذلك الذي أصابهم من العذاب كان بسبب أنهم كذّبوا رسلهم الذين أتوهم بالمعجزات الظاهرة على أنهم رسل من الله ، وقالوا منكرين : أبشرٌ مثلنا يرشدوننا ؟ فأنكروا رسالتهم ، وانصرفوا عن الحق ، وأظهر الله غناه عن إيمانهم بإهلاكهم ، والله غني عن خلقه مستحق للثناء والحمد .

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٧ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ

شرح المفردات

الذين كفروا : المراد بهم كفار مكة .

يُبعثوا : يرجعوا أحياء بعد موتهم يوم القيامة للحساب .

لَتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم : سيخبركم الله بجميع أعمالكم .

يسير : سهل هيّن .

النور : أي القرآن .

لِيوم الجمع : يوم القيامة الذي يجتمع فيه الناس للحساب .

يوم التَغَابُن : يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان ، وأصل الغبن النقص في الثمن .

يُكَفِّر عنه سيئاته : يمحو الله له ذنوبه .

تابع المعنى الإجمالي

لقد زعم الذين كفروا أنهم لن يُبعثوا أحياء بعد الموت للحساب ، قل لهم يا محمد : بلى ، وأقسم لكم بربي أنكم ستبعثون أحياء بعد الموت وستحاسبون وتخبرون بما عملتم في الدنيا ، ثم تجازون عليه ، وذلك البعث والحساب هو يسير هيّن على الله فآمنوا بالله ورسوله ، واسترشدوا بالقرآن الذي أُنزل على محمد ، والله خبير بأعمالكم . يوم يجمعكم يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافرين لانصرافهم عن الإيمان ، وغبن المؤمنين المقصرين لتهاونهم في تحصيل المزيد من الطاعات . ومن يؤمن بالله ويعمل عملاً صالحاً يمحُ له ذنوبه ، ويدخله جنات تجري من خلالها الأنهار ماكثاً فيها أبداً ، ذلك الجزاء هو

ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ
فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

تابع المعنى الإجمالي

الفوز العظيم . والذين جحدوا الإيمان بالله ورسوله ، وكذّبوا بآيات القرآن أولئك أصحاب النار ماكثين فيها أبداً ، وساء المرجع الذي يصيرون إليه .

ما أصاب الإنسان من بلاء ومحنة إلّا بتقدير الله وعلمه، ومن يُصدّق بالله يهدِ قلبه إلى الصبر والرضا بقضاء الله ، والله عنده العلم التام بكل شيء .

وأطيعوا الله فيما أمركم به ، وأطيعوا الرسول محمداً فيما بلّغ عن ربه ، فإن أعرضتم عن هذه الطاعة فلن يضر الله إعراضكم ، وإنما على رسول الله إبلاغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً . الله الذي لا معبود بحق إلّا هو ، وعليه وحده فليعتمد المؤمنون في كل أمورهم .

يا أيها الذين آمنوا إن بعضاً من أزواجكم وأولادكم عدوٌّ لكم بما يصرفونكم عن طاعة الله لتحقيق رغباتهم فكونوا منهم على حذر ، وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها في حقكم وتتجاوزوا عنها ، وتستروها عليهم يغفر الله لكم ، والله واسع المغفرة والرحمة .

إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا
حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

فتنة : ابتلاء ومحنة واختبار .

من يُوقَ : من يحفظ نفسه .

شُحَّ نفسه : الشح هو البخل مع الحرص الشديد .

قَرْضاً حسناً : دَيْناً حسناً ، والمراد : التصدق من الحلال مع طيب نفس به .

شكور : من أسماء الله تعالى ، أي أنه يشكر أهل الإنفاق بحسن الجزاء .

حليم : من أسماء الله تعالى ، أي أنه لا يعجل عقوبة المسيء .

عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ : يعلم ما يغيب عن أنظار الناس وما يشاهدونه .

تابع المعنى الإجمالي

إنما أموالكم وأولادكم ابتلاء وامتحان، والله عنده أجر عظيم لمن يؤثر طاعته ومحبته على من سواه ، فابذلوا في تقوى الله غاية جهدكم ، واسمعوا مواعظه ، وأطيعوا أوامره ، وأنفقوا بعض ما رزقكم الله في سبيل الخير يكن الإنفاق خيراً لكم ، ومن يحفظ نفسه من البخل والحرص على المال فأولئك هم الفائزون بكل خير .

إن تنفقوا أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس يضاعف الله ثواب ما أنفقتم، ويغفر لكم ذنوبكم، والله عظيم الشكر يكافىء المحسنين ، والله حليم فلا يعجل بالعقوبة على من عصاه . والله عليم فلا يغيب عن علمه ما خفي من الأمور وما ظهر وهو الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

ايضــاح و دروس

تستهل هذه السورة ببيان عظمة الله الذي يمجّده كل ما في السماوات وما في الأرض :

﴿ يُسَبِّحُ للَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

سبّح لله : معناها مجّد وعظّم ونزهّ الله وبرّأه عن السوء والنقصان ، كما تأتي سَبَّح بمعنى الصلاة والذِّكر . فالله سبحانه يسبّحه كل ﴿ مَا فِي السَّمٰواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ فجميع الموجودات تنزّه الله سبحانه عما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله ، وتدل على أنه الواحد الأحد ، المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرأ عن صفات النقصان .

فالإنسان المؤمن بخالقه يسبّح الله ويمجّده ويعظّمه ويبرّئه من كل عيب ونقص ، لأنه عندما يتأمل في هذا الكون ، ويتأمل أسرار الخلق يرى فيه قدرة الله المبرأة من كل نقص .

والكائنات الحية تسبّح الله بلسانها الخاص وبما ألهمها الله ، فمثلاً الطير يسبّح الله كما تسبحه الكائنات الموجودة في السماوات والأرض ، وقد جاء في القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ النور : ٤١ .

وكذلك المظاهر الطبيعية تسبح الله بطريقتها الخاصة ، فالرعد مثلاً هو نوع من التسبيح لله كما جاء في سورة الرعد : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

وإذا انتقلنا إلى الجماد المجرد من الحياة فإننا نرى في ذراته حركة دائبة مستمرة[١] قد تكون هذه الحركة ـ والله أعلم ـ نوعاً من التسبيح لله ، وقد جاء في القرآن ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ[٢] إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الاسراء : ٤٤ .

ثم يتابع القرآن فيذكر بعض صفات الله : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو سبحانه المتصرف في جميع الكائنات ، وله الثناء والشكر على إبداعه هذا الكون ، وهو القدير على صنع كل شيء ، وقدرته تفعل ما تشاء . ولا شك أن المؤمن أمام هذا التصور لقدرة الله ، يشعر أنه يلجأ إلى ركن متين ، فيقوى إيمانه ، ويزداد ثقة بخالقه .

ثم تأتي الآية التالية تبين موقف الإنسان من خالقه :

﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

هذا بيان لطبيعة البشر منذ ابتداء خلقهم إلى الآن ، فهم مختلفون في آرائهم ومعتقداتهم ، ومتفاوتون في الفهم ؛ كلٌّ يتلقى الحقائق حسب تصوره ، ودرجة استعداده العقلي ، فمن نال حظًّا من الفهم ، وأُوتي العقل الكامل ، والبصيرة الواعية ، وتأمل في هذا الوجود ، وما فيه من إتقان وتدبير وحكمة ، هداه عقله إلى أن لهذا الوجود صانعاً حكيماً ، متصفاً بالعلم والقدرة ، أبدع هذا الكون ، فيخشع الإنسان أمام هذه القدرة الخلّاقة ، مؤمناً بعظمة الخالق ، منزهاً له من كل نقص . أما الذين طمس الله على قلوبهم

---

(١) ثبت ان مادة أي عنصر من عناصر هذا الكون تتألف من ذرات ، وكل ذرة تتألف من عنصرين هما (النيوترون) و (البروتون) وهذان العنصران يطلق عليهما اسم (نواة الذرة) يضاف إليهما عنصر ثالث هو (الالكترون) الذي يدور حول نواة الذرة .

(٢) وإن من شيء : أي وما من شيء .

وبصيرتهم وخانهم الفهم ، فهم جاحدون وكافرون بهذه القدرة الإلّهية الخلّاقة . ويعقّب الله على ذلك بقوله : ﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهو سبحانه رقيب على هذا الانسان فيما يعمل ، فليحذر الإنسان من أن يركب هواه ، ويشتط في سلوكه فالله مطلع على قلبه ونواياه .

وينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان مظاهر قدرة الله :

﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصيرُ ﴾ .

فالله سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق ، ولحكمة هو أعلم بحقيقتها وأسرارها ، وفي ذكر « الحق » في معرض خلق السماوات والأرض وما فيهما من عظمة الخلق ، وأسرار الإبداع الإلّهي إشادة بجوهره ، ودعوة البشر إلى التقيد به ، والأخذ بمضمونه لأنه عنصر أساسي في تكوين الكون . وفي قوله سبحانه : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ لفت للنظر إلى ما في الإنسان من كمال الإبداع ، وجمال الشكل ، وخصائص التكوين من ناحية العقل والشعور والإحساس ؛ ولكن يجب أن لا يغتر الإنسان بما اتصف به من هذه المزايا ، فإن وجوده على هذه الأرض هـو لفترة محدودة ، ثم المرجع إلى الله ﴿ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ .

ثم يخاطب الله هذا الإنسان المغترّ بقوته بأنه مطلع على سره وجهره :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

هذه الحقيقة إذا وعاها الإنسان استصغر نفسه ، فالإنسان يعلم بعض ظواهر هذا الكون ، ولكن الله سبحانه يعلم كل ما في السماوات وما في

الأرض ، كما أنه يعلم ما يسرّه الناس وما يعلنونه ، فليحذر الإنسان من أن يراه ربه في مواقف العصيان وميدان الفجور .

ثم يذكّر الله الناس بمصير الأمم السابقة التي كفرت بربها :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ واللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

فالله يقول ، والخطاب هنا للكفار في عهد الرسول محمد ﷺ الذين كذّبوه ، يذكرهم بالمآل السيء الذي آل إليه الكافرون قبلهم لعلهم يرتدعون عن كفرهم ، فيقول لهم : ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي عوقبوا في الدنيا جزاء كفرهم ، فالوبال : هو الشدة والثقل والمكروه المترتبة على أمر من الأمور ، والمراد « بأمرهم » : أي كفرهم عبّر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي عذاب موجع يوم القيامة . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ ﴾ أي ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة كان من جراء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالّة على أنهم رسل من عند الله . وكان رد هؤلاء الكافرين : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ قالوا ذلك استكباراً منهم عن اتباع الرسل ، وان الرسل ـ في عرفهم ـ يجب أن لا يكونوا بشراً مثلهم . ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ أي كفروا بالله وأعرضوا عن التأمل فيما أتى به الرسل من البينات . ﴿ واسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أي واستغنى الله عن إيمانهم وعبادتهم له ، والله سبحانه ليس بحاجة لعبادة خلقه له ، وقد ظهر استغناء الله عن إيمانهم وعن طاعتهم حين أهلكهم﴿ والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فهو غني عن جميع خلقه ، محمود عندهم بجميل فضله .

ويتابع القرآن فيؤكد على وقوع البعث للذين ينكرونه :

﴿ زَعَمَ[١] الَّذِين كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ : بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فالذين كفروا قالوا قولاً كاذباً وهو أنهم لن يبعثوا ، والبعث هو إحياء الله للموتى يوم القيامة ويرد الله عليهم بتوجيه الخطاب إلى النبي : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أي أقسم لهم يا محمد بالله أنهم سيبعثون من قبورهم أحياء ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وهذا البعث هو سهل هيِّن على الله . وأمام هذا التوكيد بثبوت البعث تكمل الآية بالدعوة إلى الإيمان لأنه طريق الخلاص والنجاة . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ والنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ هو القرآن ، فإنه بإعجازه بيِّن بنفسه كما أن النور كذلك ، أو هو كالنور في الليلة الظلماء يهتدي به الإنسان إلى سلوك الطريق القويم .

وبعد هذا يبين القرآن مصير الناس في الآخرة فهم إما إلى نعيم أو عذاب :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُن ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ : والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبوا بآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ .

فالآية تصف يوم القيامة بصفتين فهو يوم الجمع وهو يوم التغابن . فيوم الجمع هو يوم القيامة حيث يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وهذا اليوم هو

(١) زعم : هو القول يكون حقاً ويكون باطلاً ويقال للكلام الذي فيه شك ويطلق الزعم على الكذب .

أيضاً يوم التغابن ، وهو مأخوذ من الغُبن وهو النقص في الثمن يقال غبنت فلاناً إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة لك ، ويوم القيامة هو يوم التغابن الحقيقي لأن الغبن لا يستدرك أبداً ، فيوم القيامة يظهر فيه غبن الكافر بترك الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان . والغبن يأتي بمعنى الضعف والنقص في الرأي ، وقد سئل الحسن رضي الله عنه عن يوم التغابن فقال : غبن أهل الجنة أهل النار ، أي استنقصوا عقولهم باختيارهم الكفر على الإيمان .

ويتابع القرآن مبيناً أن سبيل النجاة والسعادة في الآخرة يكون بالإيمان والعمل الصالح : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ وليس المراد بالإيمان الاعتقاد بأن هنالك إلَهاً يسيطر على هذا العالم فقط ولكن باستشعار قدسية الله وعظمته في النفس ، وظهور آثار هذا الإيمان بالأعمال التي تصدر عنه ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ ﴾ الأنفال : ٢ .

ويقول الرسول ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[١] .

والإيمان بالله يفجّر ينابيع الخير في النفس الإنسانية ، هذه حقيقة الإيمان التي أراد القرآن لفت الأنظار إليها ، ولذلك نرى أنه ما من آية في القرآن وَرَدَ فيها ذِكْرُ ﴿ الذين آمنوا ﴾ إلاّ أضاف إليهم سبحانه كلمة ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إشارة وتوجيهاً من الله بأن الإيمان بالله يجب أن يكون مقروناً بالعمل الصالح فهو مظهره وثمرته .

---

(١) رواه البخاري .

وعن طريق الإيمان بالله والعمل الصالح يستحق الإنسان غفران ذنوبه والدخول في جنات تجري من خلال أشجارها الأنهار ماكثاً فيها أبداً ، وذلك الفوز الذي لا فوز بعده ، أما الذين جحدوا وجود الله ، وكذّبوا بالأدلة التي تشهد بوحدانيته ، كما كذبوا بآيات القرآن التي تشهد بإعجازها بأنها وحي من الله أنزلها على رسوله محمد ﷺ ، فأولئك أصحاب النار خالدين فيها ، وبئست هذه النهاية التي ينتهون إليها .

ويعد أن بيّن القرآن حقيقة الإيمان أراد أن يضع في تصور الإيمان واقع القدر ليُدخل المؤمن في اعتقاده أن كل شيء يصيب الإنسان فهو بإذن الله وعلمه ومشيئته فيستسلم لقضاء الله ويرضى به ، وهو بذلك يقدّم العلاج الروحي لكل من أصيب بمصيبة يثقل تحملها :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

فالله سبحانه يقول : لا يُصاب أحد من الخلق بمصيبة ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بقضائه وتقديره وعلمه . ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ أي يعلم أن المصيبة كانت بقضاء الله ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يوفق الله قلبه للتسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلوائه .

ويبين النبي ﷺ مفهوم المصيبة فيقول : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك »[1] .

فإذا كانت المصيبة مقدرة من الله هانت على المؤمن المحن والمصائب

---

(١) رواه ابن ماجة .

إذ لا يقع في الكون شيْء إلاّ بإذنه وعلمه ، ولذلك يصير المؤمن هادىء النفس قرير العين ، يستعين على مصابه بالصبر والصلاة ، أما غير المؤمن إذا نزل به حادث ، أو ألمت به مصيبة ضجر وجزع ، وأصابه الغم والكرب ، واعتل جسمه ، وربما استعان على تخفيف غمه بما لا يرضي الله فيصاب بأشد الأضرار .

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

أي أطيعوا الله باتباع القرآن الذي فيه أوامره ونواهيه ، وأطيعوا الرسول باتباع سنّته ، فإن أعرضتم عن الطاعة فليس على الرسول إلاّ تبليغ رسالة الله .

ثم يقرّر القرآن حقيقة وحدانية الله التي جحدها الكفار وواجب المؤمنين نحوها : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود ولا محيي ولا مميت ولا رازق ولا نافع إلاّ الله ، وإذا تيقن الإنسان ألوهية الله وحده وأنه سبحانه المؤثر بمصائر الناس ، تحرّر من الأوهام والخرافات والعبودية للغير . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون ﴾ والمتوكل على الله الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ويستسلم له ويفوض أمره إليه ، وفي التوكل على الله طمأنينة للنفس والقضاء على كل خوف ووهم .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى تحذير المؤمنين من بعض أزواجهم وأولادهم الذين قد يصرفونهم عن واجبات الإيمان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَـدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فالقرآن يبين بعض المؤثرات في حياة المؤمن التي قد تصرفه عن واجبات الإيمان وهي تتمثل في بعض الزوجات والأولاد ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ﴾ فلفظة : من ، المذكورة في الآية تفيد التبعيض ، أي ليسوا كلهم بأعداء . فسلطان الزوجة ليس له حد على الزوج ، فالمرأة بفتنتها للرجل وتأثيرها الشديد عليه ، وكذلك حُبُّ الأولاد والتعلق بهم كل ذلك يصرف بعض المؤمنين عن واجباتهم نحو خالقهم ، وما أوجبه عليهم من أعمال صالحة نحو مجتمعهم .

فالأزواج والأولاد قد يكونون ملهاة عن ذِكر الله ، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات وواجبات الإيمان : كالجهاد، والإنفاق في سبيل الله ، فالمجاهد في سبيل الله يتعرض للأخطار ، والمنفق في سبيل الله يضحي بالكثير ، وقد يتحمل المؤمن هذه التبعات لنفسه إذا كان خالياً من الزوجة والولد ، أما بوجود الزوجة والولد فيبخل ويجبن ليوفر لعائلته الأمن والمال فيكون بذلك بعض الزوجات والأولاد صارفين المؤمن عن عمل البِرِّ والخير ، حائلين بينه وبين واجباته نحو خالقه .

وكلمة « أزواج » في الآية جمع زوج وهي تشمل الذكر والأنثى ، فما على الزوج أن يحذره من زوجته وأولاده ، على الزوجة أيضاً أن تحذره من زوجها وأولادها .

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية : أن قوماً من أهل مكة أسلموا فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتون المدينة المنورة مهاجرين ، ثم إنهم بعد ذلك لما هاجروا وقدموا على رسول الله ، رأوا الناس قد فقهوا في

الدين ، فهمّوا أن يعاقبوا أهليهم الذين منعوهم من الهجرة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فالله سبحانه يقول : إن تعفوا عن سيئاتهم ، وتصفحوا عنهم بالتجاوز عما فعلوه ، وتغفروا لهم بستر وإخفاء ما ظهر منهم ، فإن الله بالغ المغفرة والرحمة لهم . غير أنه وإن كانت الحادثة نزلت في حادثة معينة فإن معناها أبعد مدى من الحادثة وأوسع شمولاً .

ثم يحذر الله من فتنة المال والولد بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ واللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فالأموال والأولاد اختبار ومحنة فقد يحملونكم على كسب الحرام ، ومنع حق الله تعالى ، والوقوع في المحظورات ، فلا تنقادوا لهم ، ولا تطيعوهم في معصية الله ، والله عنده الأجر العظيم لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأموال والأولاد .

وبعد ذلك تأتي هذه الآية التي فيها الوصايا الخيّرة للمؤمنين :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يبذلوا في تقواه جهدهم وطاقتهم ، وأن يسمعوا سماع عقل وتدبر ما يوعظون به ، ويطيعوا فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ، ثم إن الله بعد ذلك يأمر المؤمنين بالإنفاق من أموالهم في وجوه الخير كالزكاة، والصدقة النافلة، وفي سبيل الله. وفي قوله تعالى: ﴿خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ ﴾ بعد الأمر بالإنفاق : بيان أن الخير الحقيقي يعود على المنفق

لا على من ينال الزكاة والصدقة ، لأن مال الدنيا يفنى وما عند الله من الثواب باقٍ يوم القيامة . وقد يُراد بذلك أن الإنفاق في وجوه الخير تعود على المجتمع كله ومنهم المنفق الذي هو فرد في المجتمع . ثم يضيف الله إلى ذلك قوله : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ أي : من يبتعد عن البخل والحرص على المال فأولئك هم الظافرون بكل خير ، الفائزون بكل مطلب .

وأخيراً يختم الله هذه السورة بالترغيب في فعل الخير ، والتشويق إلى البذل والإنفاق :

﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ . عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

إنه لتلطف من الله تعالى في هذا التعبير حيث جعل الإحسان بمثابة الإقراض لله ، وإنما يقترض المحتاج ، والله غني عن العالمين الذي له ملك السماوات والأرض ، وقد جاء التعبير بهذا الأسلوب ترغيباً في الإحسان ، ودفاعاً عن المحتاجين ، وما قيمة إنسان يبخل بإقراض بعض المال لخالقه الذي رزقه هذا المال ، والذي سيردّه له أضعافاً ، وبالإضافة إلى ذلك يشمله الله بالمغفرة ، والله شكور للمحسنين يثيب من أطاعه وأنفق في سبيله ، وهو حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، كما أنه سبحانه يعلم ما يغيب عن الناس وما يشاهدونه ، وهو القوي الغالب ، أوجد الأشياء بغاية الحكمة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ
وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن
يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ
فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا

شرح المفردات

لِعِدَّتِهِنَّ : لابتداء العدة ، وهو الطهر الذي لم يعاشر فيه الزوج زوجته .

أحصوا العِدَّة : اضبطوا العدة وأكملوها ، والعدة وقت محدد يعقب الطلاق لا يسمح فيه للمرأة أن تتزوج غير مطلقها .

بفاحشة : كل أمر قبيح كالزنا والسرقة والبذاءة على حماتها .

حدُودُ الله : الأحكام التي بينها ، وقد منع الله تجاوزها .

يُحدث بعد ذلك أمراً : يبدل الله البغض الى محبة والخلاف الى وفاق .

المعنى الاجمالي

يا أيها النبي إذا أردت أو أراد المؤمنون الطلاق فليكن ذلك الطلاق في وقت يصلح لابتداء العدة ، وهو الطهر الخالي من العلاقة الزوجية ، واتقوا الله ربكم فلا تخرجوا المطلقات من مساكنهن التي كن يسكنها قبل الطلاق ، ولا يخرجن منها إلّا أن يفعلن منكراً واضحاً ، تلك حدود الله فمن تجاوزها فقد ظلم نفسه ، والناس لا يدرون الحكمة من هذا التشريع فلعل بقاء الزوجة في بيت زوجها أثناء العدة يكون سبباً لصفاء القلوب ، فيحوّل الله البغض إلى محبة والخلاف إلى

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟
ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ

شرح المفردات

بلغهن أجلهن : شارفن على انتهاء العدة .

فأمسكوهن بمعروف : أعيدوهن الى الحياة الزوجية من غير قصد الضرر بهن .

ذَوَيْ عَدْلٍ : رجلين مستقيمي الخلق ، ومقبولي الشهادة .

أقيموا الشهادة لله : أدوا الشهادة خالصة لوجه الله .

يجعل له مخرجاً : يجعل له سبيلاً للخروج من الضيق والشدة .

من حيث لا يحتسب : من وجه لا يخطر بباله .

يتوكل على الله : يعتمد على الله ويسلم أمره إليه .

حسبُهُ : كافيه .

بالغُ أمره : نافذ أمره .

تابع المعنى الإجمالي

وفاق . وإذا قاربت المطلقات انتهاء العدة فأنتم بين أمرين : فإما ان تراجعوهن وتحسنوا معاشرتهن ، أو تفارقوهن من غير إضرار بهن ، وأشهدوا عند المراجعة أو الفراق شاهدين من أصحاب العدالة ، وليُؤَدِّ الشهود الشهادة عند اللزوم على وجهها الصحيح خالصة لوجه الله ، ذلكم الذي أُمرتم به ـ أيها المؤمنون ـ يوعظ به ويعتبر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . والذي يتقي الله فيحفظ نفسه من المآثم يجعل له ربه فرجاً من كل ضيق وعسر ، ويهيىء له أسباب الرزق من وجه لا يخطر له ببال ، ومن يفوض أمره إلى الله ويعتمد عليه فهو كافيه ، إن الله منفّذٌ حكمه وقضاءه في خلقه ، قد جعل الله لكل شيء تقديراً وتوقيتاً لا يتعداه .

أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن
نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ
ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ
لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ

شرح المفردات

قدراً : وقتاً مقدراً .

اللائي يئسن من المحيض : النساء اللاتي انقطع حيضهن لتقدمهن في السن .

إن ارتبتم : إن شككتم فلم تعرفوا مدة عدتهن .

اللائي لم يحضن : هن الصغيرات غير البالغات .

أولات الأحمال : النساء الحوامل .

أجلهن أن يضعن حملهن : عدتهن تنتهي بالولادة .

من وُجْدِكُمْ : بقدر استطاعتكم .

لا تضاروهن : لا تؤذوهن وتضروهن .

تابع المعنى الإجمالي

وعِدَّة النساء اللاتي انقطع عنهن الحيض لكبرهن أو مرضهن ـ فشككتم في عدتهن ـ فهؤلاء زمن عدتهن ثلاثة أشهر، وكذلك الصغيرات اللاتي لم يبلغن سن الحيض فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر ، وأما النساء الحوامل فعدتهن وضع المولود ، ومن يتق الله فيعمل بأحكامه ييسر له أموره . هذا حكم الله وتشريعه أنزله إليكم في كتابه وهو القرآن ، ومن يتقِ الله بالمحافظة على أحكامه يمحُ عنه خطاياه ، ويعظم له الجزاء في الآخرة .

أسكنوا نساءكم المطلقات ـ وهن في العدة ـ بعض أماكن سكناكم ، وأنفقوا

لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم
بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ
مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن

شرح المفردات

لتضيّقوا عليهن : أي لتضيقوا عليهن في المسكن والنفقة .

فآتوهن أجورهن : أعطوهن أجرة الرضاع .

وائتمروا بينكم : وتشاوروا فيما بينكم .

تعاسرتم : لم تتفقوا على الإرضاع بسبب العسر .

فسترضع له أخرى : ترضع الولد امرأة أخرى غير الأم .

ذو سَعَةٍ : ذو غنى .

قُدِرَ عليه رِزْقُهُ : قل رزقه وضاق .

تابع المعنى الإجمالي

عليهن على قدر طاقتكم ، ولا تلحقوا بهن ضرراً بالتضييق عليهن في السكنى والنفقة ، وإن كانت المطلقات حوامل فأنفقوا عليهن حتى يضعن مولودهن، فإن أرضعت المطلقات لكم أولادكم فلهن أجور على ذلك ، وتشاوروا بينكم في شأن الإنفاق بمراعاة السماحة والروح الطيبة ، وإن اختلفتم في شأن الرضاعة وأجرتها ، فأحضروا للطفل مرضعة أخرى ترضعه بالأجر المناسب .

ولينفق الغني على قدر غناه ، ومن كان فقيراً فلينفق مما أعطاه الله على قدر طاقته ، لا يكلف الله أحداً بالنفقة إلا بمقدار طاقته ، سيجعل الله بعد الضيق فرجاً ، وبعد الشدة رخاء .

قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ
أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

شرح المفردات

وكأيّن من قرية : وكثير من أهل القرى .

عَتَتْ : تكبر أهلها وعصوا أمر ربهم .

نُكْراً : منكراً فظيعاً .

وَبَالَ أمرها : سوء عاقبة كفرها .

خُسْراً : خسارة أي هلاكاً .

ذِكراً : قرآناً .

رسولاً : هو محمد ﷺ الذي أرسله الله رسولاً .

مبيّنات : موضحات الهدى من الضلال .

تابع المعنى الاجمالي

وكثيراً من أهل القرى عصوا وخالفوا أمر ربهم، وكذّبوا الرسل الذين أُرسلوا إليهم ، فحاسبهم الله حساباً شديداً ، وعذبهم عذاباً منكراً فظيعاً . فذاقوا سوء عاقبة كفرهم ، وكان عاقبة أمرهم هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة .

لقد هيأ الله لأهل القرى المخالفين أمر ربهم عذاباً بالغ الشدة ، فاتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ فأنتم أصحاب العقول الراجحة فقد أنزل الله إليكم قرآناً . وأرسل إليكم رسولاً يقرأ عليكم آيات الله موضحات لكم الحق من الباطل ،

إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ١٢

شرح المفردات

من الظلمات إلى النور : من الضلال إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان .
أحسن الله له رزقاً : وسّع الله له رزقه .
يتنزل الأمر بينهن : أي يجري أمر الله وقضاؤه وقدره بينهن .

تابع المعنى الإجمالي

لِيُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من خلالها الأنهار خالدين فيها أبداً ، قد أحسن الله للمؤمن الصالح رزقاً طيباً في الجنة .

الله وحده الذي خلق سبع سماوات ، وخلق من الأرض مثلهن ، يجري أمره وتدبيره فيها جميعاً ، لتعلموا أن الله ذو قدرة بالغة على كل شيء ، وأنه سبحانه قد أحاط بكل شيء علماً .

سُورَةُ الطَّلاقِ

ايضــاح و دروس

هذه السورة تعالج قضية الطلاق وتنـظمه ، وتضـع له العـلاجات الناجعة .

والطلاق في الإسلام حل عقد الزواج بعبارة تفيد ذلك صريحاً: كأنت طالق، أو كناية كقوله : أنت عليّ حرام ، أو بقضاء القاضي بناء على طلب أحد الزوجين .

والحكمة من مشروعية الطلاق متعددة ، منها : عدم تعطيل النسل المرغوب فيه ، فقد تكون المرأة عقيماً لا تلد ، والرجل فقيراً لا قدرة له على الجمع بين زوجتين ، وهو في الوقت نفسه يرغب في الولد ليعينه في شيخوخته ، ويحفظ له اسمه بعد وفاته ، فيلجأ إلى الطلاق لهذه الغاية .

ومن أسباب الطلاق : رفع الحرج عن الزوجين كأن يكون أحدهما سيء الخلق والعشرة ، أو يكون بينهما تخالف في الطباع ، فتتنافر القلوب ، وينعدم التآلف ، والأسرة إذا لم تقم على المحبة والتفاهم تداعت أركانها ، وانهار بناؤها ، ولهذا نرى كثيراً من الدول الغربية اضطرت أخيراً إلى تبني ما كانت تنكره سابقاً على الإسلام ، فأقرت الزواج المدني الذي يسمح بالطلاق ، وجعلته شرعة ثابتة في قانونها الشخصي ، وإن خالف ذلك أصول دينها .

والإسلام لا يرضى بحل رباط الزوجية من أول خلاف يحصل بين الزوجين ، بل إنه يحضّ الزوج على الصبر ، وتحمل أذى الزوجة ، وكبت

ما يشعر به من الكراهية نحوها ، لأن هذه الكراهية قد تخفي وراءها الخير الكثير للزوجين ، قال تعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ النساء : ١٩ .

فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النفور الشديد بين الزوجين فليس الطلاق هو العلاج الفوري ، بل لا بد من محاولة يقوم بها الأقرباء وأهل الخير للتوفيق بين الزوجين ، جاء في القرآن :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُريدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾ النساء : ٣٥ .

فالقرآن الكريم لا يعني أن كل خلاف بين زوجين يترتب عليه طلاق ، وإنما شرع الطلاق في حالة دوام الشقاق الذي يستحيل معه استمرار العشرة الزوجية ، ولكن مع ذلك فإن القرآن الكريم يرشدنا إلى إصلاح ما بين الزوجين ، وإجراء التحكيم قبل الطلاق بإرسال حكم من أهل الزوج ، وحكم من أهل الزوجة ليبذلا جهدهما في الإصلاح بينهما ، وإسداء النصيحة لهما بالرجوع عن رغبتهما بالطلاق التي قد تكون عابرة .

والإسلام ذمّ الطلاق فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[١] .

فإذا استحكم الخلاف بين الزوجين إلى حد لا يمكن معه التوفيق بينهما ، فليس أمامهما سوى الطلاق .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة .

هذا ويعترض الطلاق عقبات يقصد بها الإبقاء على الرابطة الزوجية ، فإذا حصل الطلاق بين الرجل وزوجته لا تنفصم عرى الزوجية من كل الوجوه ، بل هناك فترة تريّث ، ومدة محدودة تسمى (العدة) ومدتها (ثلاثة قروء) أي ثلاث دورات كاملة من الحيض أو الطهر وتقدّر تقريباً بثلاثة أشهر قمرية ، وقد جاء في القرآن : ﴿ والمُطلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ البقرة : ٢٢٨ .

وفي أثناء العدة أمر الله الزوج بأن لا يُخرج زوجته المطلّقة من منزل الزوجية ، كما أجاز للزوج أن يُعيد زوجته المطلقة طلاقاً رجعياً إلى الحياة الزوجية السابقة بدون عقد ومهر جديدين ضمن مدة العدة[١] وهذا ما تتعرض له هذه السورة مبينة بعض التشريعات في هذا السبيل .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا العِدَّةَ ﴾ .

نادى الله النبي تشريفاً له ، وبصفته إمام أمته ، والنداء موجه إلى الأمة عن طريق الخطاب إلى نبيها . والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي طلقوهن في الزمان الذي يصلح لابتداء العدة ، وهو أن يكون الطلاق في

---

(١) يجوز للرجل أن يعيد مطلقته إلى عصمته في زمن العدة إذا كان الطلاق رجعياً، وهو الطلاق الذي يوقعه الزوج على زوجته التي دخل بها ، ولم يكن مسبوقاً بطلقة أصلاً ، أو كان مسبوقاً بطلقة واحدة . فللزوج الحق في إرجاع مطلقته طلاقاً رجعياً ما دامت في العدة ، إما بالفعل بأن يقبلها أو بالقول كان يقول لها : أرجعتك إلى ذمتي ، فإذا انقضت العدة ولم يراجعها في أثنائها ثبت الطلاق (طلقة بائنة بينونة صغرى) ولا يحق للزوج إعادة مطلقته هذه إلاّ بعقد ومهر جديدين .

والإسلام جعل الطلاق مرتين فيجوز للزوج أن يطلق ثم يراجع امرأته ، كما أن له الحق في ذلك مرة ثانية ، فإن طلق للمرة الثالثة تطلق منه نهائياً ، ويسمى الطلاق حينئذٍ (طلاق بائن بينونة كبرى) ولا يحق للزوج إرجاع هذه المطلقة إلاّ بعد أن تتزوج برجل آخر ويدخل بها بغير قصد التحليل ثم يطلقها باختياره .

طهر لم يلامس فيه الرجل امرأته ملامسة زوجية ، أما تطليق المرأة وهي حائض فيحرم وهو مخالف للسنّة ، فقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلَّق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : مُرْهُ فليُراجِعْها ، ثم ليُمْسِكْهَا حتى تطهرَ، ثم تحيض ، ثم تَطهرَ، ثم إن شاء أمْسَكَ بَعْدُ وإن شاء طَلَّق قبل أن يَمسَّ فتلك العِدَّةُ التي أمر الله أن تُطَلَّق لها النساء(١) .

ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سُنّة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة أن يطلّق الرجل زوجته وهي في طهرها من قبل أن يمسها أو تكون حاملاً وقد استبان حملها ، والطلاق البدعي هو أن يطلقها في حال الحيض ، أو في طهر قد لامسها فيه ، ولا يدري أحملت أم لا .

والحكمة في طلاق السُنَّة أن الرجل إذا طلق امرأته وهي حائض لا يعدّ ذلك من أيام عدتها بل تزيد على ثلاثة قروء فتطول العدة ، كما أن الطلاق في الحيض هو طلاق في فترة تكون فيه نفس الرجل غير راغبة في المرأة(٢) ، بخلاف فترة الطهر حيث تكون فيه النفس راغبة تائقة ، فإذا طلق الرجل مع ذلك كان دليلاً عن استحكام النفرة . وإذا كانت المرأة طاهرة غير حائض فعاشرها زوجها ـ معاشرة الأزواج ـ ثم طلقها لم يؤمن بأن تحمل بولد من

---

(١) وإذا رجعنا إلى حديث رسول الله في شأن تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني فهو أمر استحباب لتأخير الطلاق فترة ليزول ما في النفس من الغضب الحامل على الطلاق ، إلاّ أنه يجوز أن يطلق الإنسان امرأته في حال الطهر الذي يعقب الحيض كما رُوي في رواية أخرى عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فقال النبي : « مُره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً » . رواه مسلم .

(٢) هذا مع العلم أن بعض النساء يصبن أثناء الحيض بعوارض عصبية وتصرفات غير متزنة مما تثير غضب الزوج فيندفع حينئذٍ إلى إيقاع الطلاق بزوجته ، من هنا كانت الحكمة في نهي النبي ﷺ عن إيقاع الطلاق أثناء الحيض .

تلك المعاشرة الزوجية ، فلو علم الزوج بأنها حامل ربما لم يطلقها ، وذلك أن الرجل قد يرغب في طلاق امرأته إذا لم يكن بينهما ولد ، أما عند إقدام الرجل على طلاق امرأته في حال استبانة حملها فدليل على تأكد رغبته وعزمه على الطلاق .

ثم يقول تعالى ﴿ وَأَحْصُوا العِدَّةَ ﴾ أي احفظوا واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، والعدة تكون عند المطلقات اللواتي عاشرهن أزواجهن ، أما اللواتي طُلقن قبل الدخول فلا عدة عليهن .

ثم يأمر القرآن الرجل الذي طلق زوجته أن يتقي ربه ، فلا يظلم امرأته بل يتركها تقضي مدّة عدتها في بيت الزوجية مع الإنفاق عليها .

﴿ واتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكَمُ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لا تَدْرِي ، لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أمْراً ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي لا تخرجوا المطلقات من بيوتهن التي كن فيها ما دمن في العدة ، وأضاف القرآن البيوت إليهن وهي في الحقيقة لأزواجهن لتأكيد النهي عن إخراجهن من بيت الزوجية ، وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ولا يَخْرُجْنَ ﴾ أي لا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنته عدتها ، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت ، ثم يقول سبحانه : ﴿ إلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ هذا الاستثناء تابع للجملة الأولى وهو قوله تعالى : ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ والمراد بالفاحشة هنا الزنا على الأرجح والسرقة أيضاً ، وقال الشافعي : الفاحشة هي البذاء في اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها في البيت . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي هذه

الأحكام التي بيّنها الله لعباده هي حدوده التي لا يحل لكم أن تتجاوزوها . ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله ﴾ أي يتجاوزها إلى غيرها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بإيرادها مورد الهلاك ، ﴿ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ فالأمر الذي يحدثه الله هو أن يحوّل قلب الزوج من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن المضي في الطلاق إلى الندم عليه .

فوصية القرآن بترك المطلقة في بيت الزوجية بعد إيقاع الطلاق لقضاء زمن العدة فيه ، هو عامل فعال في إصلاح خطأ الزوجين ، وفترةٌ لإمعان الفكر قبل حلّ الحياة الزوجية نهائياً ، فالمرأة قد تأتي بأعمال تستميل بها مطلقها إليها ، والزوج قد يندم على إيقاع الطلاق فيصلح خطأه ويراجع امرأته .

ثم يبين القرآن الكريم ما يجب اتباعه عندما تشرف المطلقات على انتهاء عدتهن :

﴿ فإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للَّهِ، ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ .

فالقرآن يقول : إذا قاربت المطلقات من نهاية انقضاء عدتهن ، فأمام أزواجهن حلاّن : إما أن يراجعوهن ويعاشروهن بالمعروف بدون إيذاء وإضرار بهن ، أو يتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيتأكد الطلاق ويملكن حينئذٍ نفوسهن ، ويكون الفراق بمعروف مع إيفائهن ما هو لهن من مؤخر المهر

والحقوق ، وتكون المراجعة أو الطلاق أمام شاهدي عدل .

وقد اختلف الفقهاء في حكم الشهادة ، فمنهم من ذهب في وجوبها على المراجعة والطلاق ، ومنهم من فرق بينهما فأوجبها في المراجعة واستحبها في الطلاق ، وظاهر الأمر في الآية الوجوب فيهما .

وحضور شاهدي عدل أنفع وسيلة للوئام بين الزوجين ، لأن لأهل الصلاح تأثيراً في النفوس ، فلعل وجودهم ونصائحهم تفعل فعلها الحسن ، فيصلحوا ما بين الزوجين من خلاف .

كما يبين القرآن بأن الذي يخاف الله ويعمل بما أمره ، ويجتنب ما نهاه عنه ، يجعل له مخرجاً وفرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ، ولا يكون في حسابه ، كما يعلن أن من يفوض أمره إلى الله فهو كافيه مما أهمه وأحزنه ، فالله سبحانه : ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي أمره نافذ ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شيءٍ قَدْراً ﴾ أي قد جعل الله للشدة أجلاً تنتهي إليه ، ومنها الخلاف الذي يحصل بين الزوجين .

وبعد ذلك يبين القرآن مقدار زمن العدة عند النساء الكبار والصغيرات والحوامل :

﴿ وَاللَّائي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ واللَّائي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً . ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ .

هنا تحديد لمدة العدة عند النساء اللاتي بلغن سن اليأس فانقطع

حيضهن لكبرهن ، وكذلك الفتيات الصغيرات اللاتي هن دون البلوغ ولم يبلغن سن الحيض ، فهؤلاء وأولئك عدتهن ثلاثة أشهر . أما الحوامل سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن فعدتهن تنتهي بالولادة ، ويعقب الله على ذلك قوله :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ .

واليسر في أمور الإنسان هي غاية ما يرجوه ، فلا مشقة في الحياة ولا عسر ولا ضيق ، كما يشمل اليسر أمور الآخرة ، فيوفق الله المتقي ، وييسر له العمل الصالح الذي يسعده في الآخرة ، ثم يقول سبحانه : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ فشريعة الطلاق وأحكامها منزلة من عند الله ، ويعقب الله على ذلك قوله : ﴿ ومن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ويُعْظِمْ له أجْراً ﴾ أي من يتق الله يمحُ عنه ذنوبه ، ويعطه في الآخرة الثواب العظيم بإدخاله الجنة ، وفي هذا ترغيب قوي للأخذ بالتقوى والإلتزام بما شرعه الله وعدم مخالفة أمره .

وبعد ذلك يبين القرآن حكم النفقة على المطلقات أثناء العدة :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ، وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ .

فالله يقول : اسكنوا المطلقات في المكان الذي تسكنون فيه ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ أي بما في وسعكم وقدر غناكم ، ولا يجوز إلحاق الضرر بهن قصداً بالتضييق عليهن في النفقة والمسكن بإسكان غيرهن معهن ممن لا يحببن السكنى معه ، وإن كانت المطلقات حوامل فأنفقوا عليهن حتى

يلدن ، والإنفاق يشمل السكن أيضاً . وبعد الولادة تكون الأمهات المطلقات بالخيار ، فإما أن يرضعن الأولاد وهذا حقهن لا يُنازعن عليه ، وإما أن يمتنعن عن الإرضاع ، فإن أرضعن فلهن أجورهن على الإرضاع بما تعورف عليه ، وبما يتفقن مع الآباء عليه . ثم يرشد القرآن الكريم الأب والأم إلى التشاور في شأن الوليد ، عارضاً كل واحد منهما رأيه تجاه الآخر ، بما هو متعارف عليه وبما هو حسن ، فيتراضى الأب والأم على أجر مسمى ، أما إذا اختلف الأب والأم على الأجرة فعلى الأب أن يحضر امرأة أخرى تقوم على الإرضاع .

ثم تأتي هذه الوصية الإلهية للأزواج بالإنفاق قدر طاقتهم :

﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لا يُكلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ مَا آتاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ .

فالقرآن يأمر الأزواج بأن ينفقوا على مطلقاتهم اللواتي يرضعن أولادهم على قدر سعتهم وغناهم ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَليه رِزْقُهُ ﴾ أي ومن ضُيّق عليه رزقه بأن كان فقيراً ، فلينفق مِمَّا أعطاه الله وعلى قدر طاقته ، لا يكلف الله أحداً من النفقة إلاّ بمقدار ما آتاه الله من الرزق ، ثم يأتي الوعد من الله ، والبشرى للذين يلتزمون حدوده ويتقونه بأن الله سبحانه سيجعل لهم بعد الضيق الفرج ، وبعد الشدة اليُسر والغنى .

وينتقل القرآن إلى إنذار المعرضين عن الهدى مبيّناً ما أصاب غيرهم من العصاة من عذاب جزاء عصيانهم :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ ، فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً ﴾ .

هذه الحقيقة نرى مصداقها عند التأمل في أحوال الأمم ، وما أصابها من ويلات وخراب ودمار جزاء عملها السيء . فالقرآن يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أي وكثير من أهل القرى من الأمم السالفة ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ استكبرت وتمردت وعصت أوامر ربها وأوامر الرسل الذين أرسلهم الله إليها ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً ﴾ أي فجازيناها على عصيانها بالعذاب الشديد في الدنيا ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً ﴾ أي عذاباً منكراً عظيماً يفوق التصور ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ فذاق أهل هذه القرى عاقبة ما عملوا وأتوا من معاصي الله والكفر به ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ أي كان عاقبة أهل هذه القرى هلاكاً في الدنيا وعذاباً شديداً في الآخرة .

وتعود الآية التالية لتؤكد الوعيد للعصاة ، وتخلص منه إلى البشرى للمؤمنين الطائعين بحسن الجزاء :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الإِلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً . رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُم آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ .

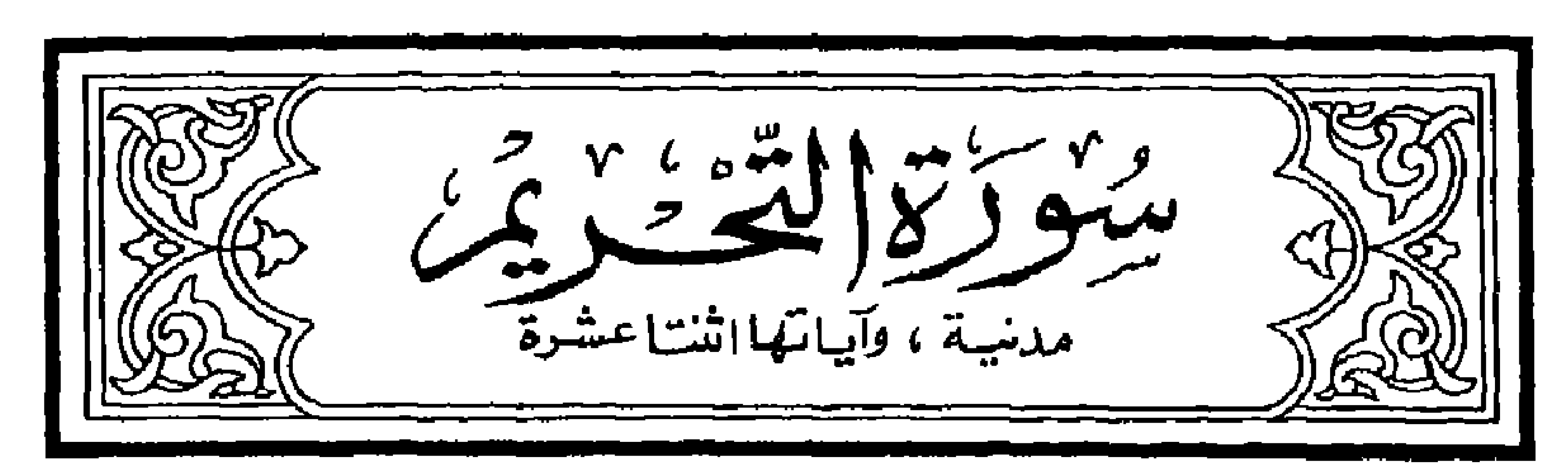
لقد كرر الله ذكر العذاب للتأكيد على ما أصاب ويصيب كل من يعصي ربه ، منتقلاً بعد ذلك إلى مخاطبة المؤمنين ، محذراً إياهم من مغبة العصيان ، موصياً إياهم بالتقوى ، فهم أصحاب عقول راجحة لا يسلكون مسلك العصاة . ولقد أنزل الله على المؤمنين قرآناً يذكرهم بما فيه سعادتهم ، وأرسل إليهم رسولاً وهو محمد ﷺ يتلو عليهم آيات هذا الكتاب وهي واضحة لمن تدبرها ، ليُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من

ظلمات الضلال والكفر إلى نور الهداية والإيمان ، ثم يأتي الوعد الرباني بأن من يؤمن بالله ويعمل صالحاً فإن مصيره هو النعيم الخالد في الآخرة في بساتين تجري من خلالها الأنهار ، ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ، وقد أحسن الله لهم فيها الأرزاق ووسعها .

ثم يأتي ختام هذه السورة وفيها بيان لقدرة الله العظيمة في هذا الكون ، وفي هذا تذكير للأزواج بأن يراقبوا الله في أعمالهم فلا يظلموا زوجاتهم ، فإن قدرة الله التي خلقت هذا الكون لا يعجزها الانتقام من كل من يخالف أمره :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ .

والسماوات السبع والأراضي السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها ، وعلمنا لم يصل بعد إلى اكتناه أسرار هذه الحقيقة الربانية ، ونفوض العلم بذلك إلى الله سبحانه ، ولعل الزمن يكشف لنا بعض أسرار هذه الحقيقة كما كشف العلم لنا كثيراً من أسرار القرآن . والمراد بقوله : ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي يجري أمر الله وقضاؤه في السماوات والأرض وينفذ حكمه فيهن ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي لتعلموا أيها الناس كنه قدرة الله وسلطانه وأنه لا يتعذر عليه شيء أراده ، وهو على كل ما يشاء قدير . وأنه سبحانه ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْماً ﴾ فعلمه سبحانه محيط بكل شيء من خلقه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء مهما صغر وكبر ، فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم واتقوا عقوبته بإطاعة أوامره ، واتباع أحكامه التي شرعها لكم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا

شرح المفردات

تُحَرِّم : تجعله حراماً .

تبتغي : تطلب .

فَرَضَ : شرع وبيَّن .

تَحِلَّة أَيْمَانِكُم : تحليل القسم بالكفارة .

الله مولاكم : الله ناصركم ومتولي أموركم .

تابع المعنى الإجمالي

يا أيها النبي لا ينبغي أن تُحَرِّمَ على نفسك شيئاً حلالاً استرضاء لزوجاتك ، والله بالغ المغفرة ، واسع الرحمة . وقد بيّن الله كفارة اليمين للذين يحلفون بالامتناع عن الحلال ، والله متولي أموركم ، وهو العليم بأحوالكم ، الحكيم في تشريعه .

وقد أسرّ النبي إلى بعض زوجاته وهي حفصة بنت عمر بعض الكلام وأمرها

فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ
فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾
إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ

شـرح المفـردات

نَبَّأَتْ به : أخبرت به غيرها .

وأظهره اللَّهُ عليه : وأطلعه الله على خبر إفشائه .

عَرَّفَ بعضه : أخبر زوجته ببعض ما عرفه تكرماً .

وأعرض عن بعض : وترك بعضه الآخر فلم يخبرها به .

صَغَتْ : عدلت ومالت عن الحق .

تظاهرا عليه : تتعاونا عليه بما يسوءه .

مولاه : ناصره ومعينه .

صَالِحُ المؤمنين : خيار المؤمنين والمخلصين منهم .

ظهير : أعوان له ينصرونه .

تـابع المعنى الإجمالي

بكتمانه ، فأفشته إلى عائشة ، وأطلع الله نبيه على ما فعلت ، فأخبر النبي حفصة بعض ما عرف ، وأعرض عن بعضه تكرّماً ، فلما أعلمها به قالت : من أخبرك بهذا ؟ فقال : أخبرني الله العليم الخبير بكل ما يفعله الناس ويحاولون إخفاءه .

ويخاطب الله زوجتي النبي حفصة وعائشة : إن ترجعا إلى الله نادمتين وتعملا ما يستوجب التوبة فهو خير لكما ، لأن قلوبكما مالتا عن الحق بإفشاء سرّ النبي ﷺ ، وإن تتعاونا على الإساءة إلى النبي ، فإن الله ينصره وجبريل وخيار المؤمنين ، وكذلك الملائكة فإنها تنصره .

﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ
مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ
وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ

شرح المفردات

مؤمنات : مصدّقات بوجود الله ووحدانيته .

قانتات : مطيعات لله ، وقيل : مصليات .

تائبات : ملازمات للطاعة وراجعات عن المعاصي .

عابدات : عبادة الله هي الخضوع والتذلّل له .

سائحات : صائمات ، وقيل : مهاجرات .

ثيِّباتٍ : نساء سبق أن تزوجن .

أبكاراً : عذارى لم يتزوجن .

قوا أنفسكم وأهليكم ناراً : احفظوا أنفسكم واهليكم من دخول النار بترك المعاصي وفعل الطاعات .

تابع المعنى الاجمالي

ولعل الله أن يوفق النبي - إن وقع منه طلاق - إلى زوجات خير منكن ، خاضعات لله ، مصدِّقات بقلوبهن لله ، مطيعات لله ، تائبات ، متعبّدات لله ، صائمات لله ، ثيِّبات وَأَبكار .

يا أيها الذين آمنوا احفظوا أنفسكم وأهليكم من نار جهنم بالطاعة وترك المعاصي ، هذه النار تختلف عن نار الدنيا بأن وقودها الناس والحجارة ، يقوم على أمرها وتعذيب العصاة فيها ملائكة قساة أقوياء لا يعصون لله أمراً ، ويفعلون

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا
نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ

شرح المفردات

غِلاظٌ شِدَادٌ : قساة أقوياء .

توبوا إلى الله : عودوا إلى طاعة الله وارجعوا عن ذنوبكم .

توبة نصوحاً : توبة صادقة لا عودة بعدها إلى الإثم .

لا يُخْزي الله النبي : لا يذله بل يعزه ويكرمه .

تابع المعنى الإجمالي

ما يأمرهم الله تعالى به . ويقال للكافرين لا عذر لكم اليوم إنما تُجزون ما كنتم تعملون في الدنيا .

يا أيها الذين آمنوا عودوا إلى طاعة الله ، وارجعوا عن ذنوبكم رجعة صادقة بالغة الإخلاص ، عسى ربكم أن يمحو عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من خلالها الأنهار ، يوم لا يُذل الله النبي والذين آمنوا معه بل يكرمهم ، نورهم يسير أمامهم ويُرى بيمينهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا حتى نهتدي إلى الجنة ، وتجاوز عن سيئاتنا إنك يا ربنا لك القدرة الكاملة على صنع كل شيء .

يا أيها النبي جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين بالحجة والبرهان ، واشدُدْ

ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ

شرح المفردات

اغلُظ عليهم : شدّد عليهم واستعمل الخشونة في أمرهم .

مأواهم جهنم : مصيرهم إلى النار .

وبئس المصير : بئس المرجع الذي ينتهون إليه .

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً : ذكر الله مثلاً ينبغي أن يتأمله الناس ويأخذوا منه الموعظة .

كانتا تحت عبدين من عبادنا : كانتا زوجتين لعبدين من عباد الله .

فلم يُغْنيا عنهما من الله شيئاً : فلم ينفعهما عند الله أنهما زوجتان لنبيين .

تابع المعنى الإجمالي

وطأتك عليهم ، ومصيرهم جهنم وبئست هذه النهاية لهم .

بيّن الله حال الكافرين ، الذين يؤخذون بعملهم رغم قرابتهم للأنبياء وأعطى لذلك مثلًا : امرأة نوح وامرأة لوط ، فقد كانتا زوجتي نبيين من عباد الله الصالحين ، فخانتا زوجيهما بالكفر والتآمر عليهما وإفشاء سرهما إلى قومهما ، فلم تنفعهما هذه القرابة يوم القيامة ، ولم ترفع عنهما من عذاب الله شيئاً ، وقيل لهما : ادخلا النار مع الداخلين .

وأعطى الله مثلاً للذين آمنوا امرأتين : إحداهما امرأة فرعون إذ قالت : رب

وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ
ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ
بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

شَرح المفردَات

أحصنت فرجها : عفّت عن ارتكاب الفاحشة .

مِنْ رُوحِنَا : روحاً من خلق الله بلا واسطة أب وهو عيسى عليه السلام .

القانتين : المطيعين لربهم .

تابع المعنى الإجمالي

ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، وأنقذني من فرعون وعمله ، وأنقذني من القوم الظالمين . والأخرى : مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها ، وعفّت عن ارتكاب الفاحشة ، فنفخ فيها جبريل عليه السلام ـ بأمر الله ـ روحاً من خلقه سبحانه فحملت بعيسى ؛ ومريم صَدَّقت بالصُّحفِ المنزلة من الله على أنبيائه ، وكانت في عِدادِ المواظبين على طاعة الله .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعرض في مجملها صورة من الحياة البيتية لرسول الله محمد ﷺ ، وصورة من الانفعالات النفسية بين النبي وبعض نسائه وبينهن وبينه ، كما تأمر نساء النبي بالتوبة مبينة عواقبها الطيّبة ، كما تبين أن القرابة التي تجمعهن بالنبي لن تنفعهن يوم القيامة إذا عصين الله ونبيه .

وهُنا يعرض سؤال : ما هي الحكمة من طرح هذا الموضوع قرآنياً ؟ والجواب : بعد أن اختار الله محمداً ﷺ للرسالة لم تعد حياته ملكاً له بل أصبحت ملكاً لأمته ومن حقهم أن يعرفوا تفاصيل دقيقة من حياته الخاصة ليأخذوا منها دروساً وعبراً في حياتهم، ومن هنا كان كشف أمور خفية من حياة النبي ينطوي على حكمة بالغة ، فيكون الرسول مبلِّغاً ومُوجهاً لأمته في أقواله ، وفي أفعاله أيضاً ، علماً بأن نساء النبي لم يخرجن عن كونهن بشراً ، ويكون التوجيه القرآني للعدول عن الغيرة وعن إفشاء الأسرار الزوجية للمحافظة على سلامة العائلة .

وقبل أن نستعرض هذه السورة يحسن بنا أن نذكر تعريفاً مجملاً عن زوجات النبي ﷺ يعيننا على تصوّر الحوادث التي جاءت بصددها هذه السورة وينفي بعض التهم عن النبي ﷺ .

فمحمد ﷺ تزوج بإحدى عشرة امرأة ، وهو استثناء خاص به دون قومه ، وقد اتخذ أعداء الإسلام من هذا التعدّد مثاراً للطعن في سيرته . وللرد على هؤلاء نقول : إن محمداً كان معروفاً منذ صباه إلى كهولته بالعفة ، ولم يرمه بتهمة شائنة أحد من أعدائه في عصره ، وهم الحريصون

على إبراز كل نقيصة تطعن في نبوته .

وإن في الحديث عن كل زوجة من زوجاته ، والظروف التي تزوّج بها لرداً مفحماً على كل مفتر على النبي ﷺ ، وإليكم هذا العرض بإيجاز :

السيدة خديجة بنت خويلد : أول امرأة تزوجها النبي ﷺ وكانت أرملة في نحو الأربعين ، بينما كان النبي في الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت وقد جاوزت الستين من عمرها ، وهكذا يكون النبي قد عاش مع زوجته حوالي عشرين سنة في السنّ التي يفرط فيه الإنسان بالشهوات ، هذا مع العلم أن العادة في بلاد العرب أن يتخذ الرجل لنفسه عدة زوجات ، فإن النبي ﷺ لم يجمع مع خديجة أية زوجة أخرى وهي التي تكبره في السن بخمسة عشر عاماً .

وتعداد النبي ﷺ للزوجات كان بعد موت خديجة ، وكانت الغاية من ذلك جملة أمور : تعليمية ، وتشريعية ، وإنسانية ، وسياسية :

فالنبي ﷺ أراد تخريج بعض معلمات للنساء يعلمهن الأحكام الشرعية ، وقد فرض الإسلام على النساء من التكاليف الشرعية مثل ما فرض على الرجال ، وكان الكثيرات من النساء يستحين من سؤال النبي في بعض الأمور الخاصة بهن ، وحُكْم الإسلام في ذلك ، فكن يسألن نساءه .

السيدة سودة بنت زمعة : تزوجها النبي بعد وفاة خديجة وهي أرملة كان زوجها من المهاجرين إلى الحبشة ، ثم رجع إلى مكة فمات بها ، وترك لها خمسة صبية ، فأصبحت زوجته وحيدة لا معيل لها ، فتزوجها النبي ﷺ لإعالتها وتكريماً لها على صِدْقِ إيمانها .

السيدة عائشة بنت أبي بكر الصدّيق : تزوجها النبي ﷺ وقد كانت

صغيرة وهي الوحيدة بين نسائه التي تزوجها بكراً ، وقد كانت مصاهرة النبي لوالدها أبي بكر الصدّيق ، أعظم مكافأة له في هذه الحياة ، كما أن زواجه منها خير وسيلة لنشر سنّته وأحكام الإسلام ، وقد رُوي عنها أنها كانت أذكى نساء النبي ، وأحفظهن للعلم ، فروت آلاف الأحاديث عن رسول الله ، وكانت فقيهة تقدّمت على عديد من الصحابة في الرواية والفتوى .

السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب : تزوّجها النبي ﷺ وهي أرملة ، وكان زوجها قد أبلي بلاءً حسناً في غزوة بدر ، وغزوة أُحُد ، ثم مات بعد ذلك . والزواج منها كان لتوثيق الصلة بينه وبين والدها عمر بن الخطاب الذي أعزَّ الله الإسلام بإسلامه .

السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان : تزوجها النبي وهي أرملة ، وكان زوجها من مهاجري المسلمين إلى الحبشة ، وقد هاجرت معه فتنصّر وحاول أن يصرفها إلى دينه الجديد ، فأبت وصبرت على دينها ، فتزوجها النبي إكراماً لها على ثباتها وتمسكها بالإسلام .

السيدة أم سلمة هند بنت أبي أمية : كانت من أشد الناس إيماناً وجهاداً ، فقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فراراً بدينهما من أذى قريش ، ثم رجعا إلى مكة ، ثم هاجرت وإياه بعد ذلك إلى المدينة فراراً من اضطهاد قريش . وفي معركة أُحُد أُصيب زوجها بجُرح بليغ ظل يعاوده إلى أن تُوفي ، وترك لها أولاداً صغاراً ، فتزوجها النبي ﷺ إكراماً لها على جهادها وصبرها ، وضم إليه أولادها لإعالتهم .

السيدة زينب بنت جحش : تزوّجها النبي ﷺ لإبطال بعض العادات الجاهلية ، فقد كانت زينب زوجة متبناه زيد بن حارثة الذي طلقها حين ساءت الأمور بينهما ، فتزوجها النبي بأمْرٍ من الله ليكون ذلك تشريعاً في عدم

شرعية التبني في الإسلام ، وهذا الزواج كان محظوراً عند العرب قبل الإسلام .

السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار : وهي من قبيلة بني المصطلق الذين تجمعوا لقتال النبي ﷺ بقيادة سيدهم الحارث بن أبي ضرار ، فهزمهم المسلمون وسبوا منهم كثيراً من الرجال والنساء ، وكانت في السبي السيدة جويرية ، فوقعت في حصة أحد المسلمين ، فاتفقت معه على مبلغ من المال تدفعه له ثمناً لحريتها ، ثم جاءت إلى النبي تطلب منه بعض المال لذلك ، وهنا تجلّت حكمة النبي في بني المصطلق ، الذين كانوا من أعز العرب داراً ، وأسْرُ رجالهم ونسائهم بهذه الكثرة يترك مشكلة اجتماعية صعبة الحل ، فقال النبي ﷺ لجويرية : أقضي عنك المال الذي يعتقك وأتزوجك ، فقبلت ، وتزوجها النبي ﷺ ، فسرى الخبر إلى المسلمين أن رسول الله قد تزوج جويرية فقالوا : أصهار رسول الله نسترقهم! لا لن يكون . . . ثم اعتقوا كل من بأيديهم من الأسرى. ولقد قالت عائشة : فلقد أعتق رسول الله بتزوجه إيّاها أهل مائة بيت من بني المصطلق ، فما رأيت امرأة أعظم بركة على قومها منها .

السيدة زينب بنت خزيمة العامرية : وقد استشهد زوجها في غزوة أُحُد فتزوجها النبي ﷺ ، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت ، وقد وُصِفَتْ بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء حتى لقبت (بأم المساكين) .

السيدة صفية بنت حيي بن أخطب : كان أبوها سيد بني النضير من بني إسرائيل ، وقد أُسرت بعد مقتل زوجها في غزوة خيبر فاستدعاها النبي ﷺ وقال لها : إن تكوني على دينك لم نكرهك ، فإن اخترتِ الله ورسوله اتخذتك لنفسي ، قالت : بل أختار الله ورسوله ، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها

مكافأة لها على إسلامها ، وإنقاذاً لها من ذل السبي بعد أن كانت سيدة في قومها .

السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية : وهي أرملة تزوجها النبي ﷺ إكراماً لعشيرتها الذين آزروه ونصروه .

السيدة مارية القبطية : وهي واحدة من نساء النبي ﷺ لم تُلقّب بأم المؤمنين ، وهي جارية أهداها للنبي ﷺ « المقوقس » ملك مصر ، وقد وَلَدَت للنبي ابنه إبراهيم توفي ولم يتم السنتين من عمره .

وبعد هذه المقدمة عن أزواج النبي ﷺ نستعرض معاني هذه السورة التي تبدأ بعتاب إلّهي للنبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ : مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ .

ورد في أسباب نزول هاتين الآيتين روايتان ، الأولى : أن النبي ﷺ كان يمكث عند زوجته زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً ، فتواطأت عائشة وحفصة لما وقع في نفسيهما من الغيرة من ضرتهما أن أيتهما دخل عليها النبي ﷺ فلتقل : إني أجد منك ريح مغافير[1] ! أكلتَ مغافير ، فدخل النبي ﷺ على حفصة فقالت له ذلك ، فقال النبي : لا ، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود ، وقد حلفتُ فلا تخبري أحداً ، فأخبرت

---

(١) مغافير : صمغ حلو ينضحه شجر يقال له العرفط يؤخذ ثم ينضح بالماء فيشرب وله رائحة كريهة ، وكان النبي يكره أن يصدر منه رائحة كريهة .

عائشة بذلك ، فأطلع الله نبيه على إفشاء حفصة القصة لعائشة . وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ فأعلم النبي حفصة ببعض الحديث الذي دار بينها وبين عائشة لتعرف أنه علم بإفشائها السرّ وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ فظنت حفصة أن عائشة هي التي أخبرته بالقصة ، فقالت له : ﴿ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ فقال النبي ﷺ : ﴿ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أي الله سبحانه العليم بالسِرِّ والعلن ، والخبير بأحوال الناس جميعاً .

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ اختلى بمارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة التي كانت في زيارة لوالدها في اليوم المخصّص لها ، فلما رجعت حفصة وجدتهما في بيتها ، وغارت غيرة شديدة ، فلما خرج النبي ﷺ بادرته غاضبة معاتبة له على قربان مارية في بيتها ، معتبرة ذلك إهانة لها ، فقال لها النبي : إني مسرّ إليك سرّاً فاحفظيه ، قالت : ما هو ؟ قال : إني أُشهدك ان مارية عليّ حرام إرضاء لك ، ولكن حفصة لم تستطع أن تكتم سراً عن عائشة التي كانت تخصها بودّ خاص ، واندفعت عائشة تستثير ضرائرها من نساء النبي ، فما زالت حتى انضممن إليها ، ولجت عائشة في غيرتها ، ونساء النبي يعاونّها على زوجهن رسول الله ، غيرة من مارية التي حملت دونهن بابنه إبراهيم ، مما أغاظ ذلك النبي فاعتزلهن جميعاً في صرامة لم يألفنها ، وأقسم بأن لا يقرب نساءه شهراً ، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة ، فأنزل الله مطلع هذه السورة التي فيها العتاب للنبي على تحريم شيء قد أحلّه الله إرضاء لنسائه ، وختمها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مطمئنة النبي ﷺ ، لأن عتاب الله له لتحريمه ما أحل له قد يشعر بمؤاخذة شديدة من الله ، فأعقبه سبحانه بما يبعث الطمأنينة إلى قلبه من مغفرة ربه ورحمته . مبيناً له المخرج من هذا التحريم بقوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لكم

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ أي شرع الله تحليل ما حرمتم على أنفسكم بالقسم وذلك بالكفارة التي وردت في سورة المائدة آية ٨٩ . ومؤداها إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، أو تحرير إنسان من الرق أو صيام ثلاثة أيام . ﴿ واللَّهُ مَوْلاكُمْ ﴾ والله وليكم وناصركم أيها المؤمنون ﴿ وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ وهو العليم بخلقه الحكيم في صنعه فلا يأمركم إلّا بما تقتضيه الحكمة .

ثم تأتي هذه الآية موجهة اللوم إلى الزوجتين اللتين حصلت معهما الحادثة :

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

فالقرآن يخاطب زوجتي النبي ﷺ اللتين تآمرتا : إن تتوبا إلى الله وترجعا إلى الصواب فلتوبتكما موجب وسبب فقد ﴿ صَغَت قُلُوبُكُمَا ﴾ أي مالت قلوبكما عن الحق والواجب من الإخلاص لرسول الله ، ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي تتعاونا على النبي بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء السرّ ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ أي ناصره ومعينه ﴿ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ ﴾ أي المخلصين الصادقين من المؤمنين ، ثم وأكثر من ذلك ﴿ وَالملَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ والملائكة مع جبريل وصالح المؤمنين لرسول الله أعوان على من آذاه .

وبعد هذا يحذّر الله نساء النبي ﷺ جميعهن ، مهدداً إياهن بأن النبي إذا طلقهن فسيعوّضه سبحانه خيراً منهن في العبادة والجمال :

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ .

والمعنى : إن طلقكن فعسى أن يُبدله الله أزواجاً خيراً منكن ﴿ مُسلِمات ﴾ خاضعات لله بالطاعة ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدقات بالله ورسوله ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ أي مطيعات لله ، ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ أي راجعات عن الذنوب لا يصررن عليها ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ أي متعبدات لله ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات ، وقيل : مهاجرات في سبيل الله ﴿ ثَيِّبَاتٍ ﴾ جمع ثيب وهي المرأة التي كانت ذات زوج ثم مات عنها زوجها أو طلقها ، ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ جمع بكر وهي العذراء التي لم يتصل بها رجل .

ولما كان جو الآيات دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله ، تأتي الآيات هنا داعية المؤمنين بأن يسيروا على هدى الله ، وأن يؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية لنسائهم وأولادهم وتوجيههم إلى طاعة الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم نار الآخرة، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات ، وهذه النار تختلف عن نار الدنيا ، فليس وقودها الحطب ، وإنما وقودها اثنان : الناس والحجارة ، فهي توقد بأجسام العصاة كما توقد بالحجارة[1] . وهذه النار موكَّل بها ملائكة ﴿ غِلاَظٌ ﴾ أي

---

(١) قد يستغرب الإنسان في عصر نزول القرآن كيف توقد النار بالحجارة ، ولكن بعد اكتشاف الفحم الحجري بعد نزول القرآن بمئات السنين وما يحمل من طاقة عظيمة من الحرارة ظهر لنا الإعجاز في الاخبار عن أمور يكتشفها العلم في المستقبل ، كما يظهر لنا أسرار التعبير القرآني في وصف تأجج جهنم بالنيران ومصادر الوقود فيها .

قساة في تعذيبهم أهل النار ، كما أنهم ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي أقوياء لا يفلت منهم أحد ، وهؤلاء الملائكة يتميزون بالطاعة المطلقة لله تعالى ، وفي النار يُعذب الكافرون بأعمالهم ، ولا يقبل منهم اعتذار على ما فعلوه في دنياهم ، بل يقال لهم : ﴿ إِنَّما تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ أي تثابون اليوم جزاء ما عملتم من الكفر والمعاصي .

ومما يسترعي الانتباه هو وصية الله للمؤمنين بأن يقوا أهلهم نار يوم القيامة ، ومعنى هذا أن المؤمن مُكَلَّفٌ بهداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف بهداية نفسه ، وإذا صَلُحَ البيت صَلُحَ المجتمع .

كما أن في الآية إرشاداً للآباء بأن يكونوا قدوة لأبنائهم ، لأن القرآن ابتدأ بخطاب الآباء بأن يصلحوا أنفسهم ثم يصلحوا بعد ذلك أهلهم .

ثم يُبَيِّن الله للمؤمنين الطريق الذي يجب أن يسلكوه ، للنجاة من عذاب النار ، ونيل النعيم في الآخرة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فالله يأمر المؤمنين بأن يتوبوا إلى الله ﴿ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ أي توبة صادقة بالغة النصح ، تنصح صاحبها بعدم العودة إلى ما تاب عنه ، توبة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وقال العلماء في ذلك : « التوبة النصوح هي أن يُقْلِعَ المذنب عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على أن لا يفعل الذنب في المستقبل ، ثم إن كان الحق

لآدمي ردّه إليه » .

وروي عن النبي ﷺ قوله : « التوبة ندم »[١] .

وبالتوبة النصوح يكفّر الله بها السيئات ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ وجيء بكلمة عسى قبل التكفير عن السيئات للإشعار بأن مغفرة الله لهم هي تفضّل منه سبحانه ، وأن الإنسان ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء وإن بالغ في العبادة . كما أن بالتوبة النصوح يدخل الله المؤمنين بساتين تجري من تحتها الأنهار يوم القيامة ، يوم يكرّم الله النبي والذين آمنوا معه فلا يخزيهم .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أي نورهم يسعى بين أيديهم أي أمامهم حين يمشون ، ونورهم يظهر أيضاً باليد اليمنى عند الحساب ، لأن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه وفيه نور وخير . والمؤمنون يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ وذلك عندما يرى المؤمنون نور الكافرين يُطفأ يسألون الله أن يتمم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة ، كما أن المؤمنين يسألون ربهم بأن يغفر لهم فهو على كل شيء قدير .

وبعد توجيه المؤمنين إلى التوبة النصوح تأتي الآية القرآنية آمرة بمحاربة الأعداء لتأمين الحماية للدعوة الإسلامية ، وأن الأعداء فريقان : فريق يحارب من الخارج وهم الكفار ، وفريق يحارب من الداخل وهم المنافقون ، ولذا شملت الآية التالية الفريقين معاً :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ .

---

(١) رواه ابن ماجة .

أي جاهد الكفار بالسيف ، وجاهد المنافقين بالحجة والإنذار والوعيد ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي شدّد عليهم في الدعوة ، واستعمل الخشونة في أمرهم ، وسيكون مصيرهم جهنم ، وبئس هذا المرجع الذي ينتهون إليه .

ثم يأتي ختام هذه السورة فيقدّم القرآن مثالاً للذين كفروا يجب اجتنابه ، ومثالاً للذين آمنوا يجب الاقتداء به ، مبتدئاً بمثال الذين كفروا ويندرج تحته امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا : امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

فهذا المثل فيه توجيه لأزواج رسول الله ﷺ ولكافة المؤمنين ، فأزواج رسول الله إذا لم يُطِعْنَ الله ورسوله لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ، وأنهن زوجاته ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بنبيين من أنبياء الله . فالكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ولرسوله ، ولا ينفعه مع كفره وعصيانه ما كان بينه وبين المؤمنين من قرابة أو سبب من أسباب الاتصال . فلو نفعت صِلَة القرابة لنفعت الصِّلة التي كانت بين النبي نوح والنبي لوط وامرأتيهما ، فهاتان المرأتان خانتا زوجيهما بأن كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سرِّ نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت به الجبابرة من قوم نوح ، واما امرأة لوط فكانت إذا جاء لوطاً أحدٌ من الضيوف خبَّرت به أهل المدينة ممن يعملون السوء ، وهاتان الزوجتان يُقال لهما يوم القيامة : ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

أما المثل المضروب للذين آمنوا الذي يجب الاقتداء به فهو امرأة فرعون

ومريم ابنة عمران :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمنوا : امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ : رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَمَرْيَمَ ابنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ ﴾ .

فموقف امرأة فرعون السلبي من زوجها هو مثل أعلى للاستعلاء على مفاتن الدنيا ومغرياتها ، فقد كانت امرأة فرعون زوجة أعظم ملوك الأرض يومئذٍ ، وكانت تعيش في قصر زوجها الذي تجد فيه كل ألوان النعيم والترف ، ولكنها أعرضت عن كل مباهج هذا القصر ، بسبب الكفر والظلم المسيطر عليه ، وتوجهت بقلبها إلى الله ، الذي آمنت به ، طالبة منه أن يبني لها بيتاً في الجنة ، وأن ينجيها من سوء أعمال فرعون وظلمه ، ومن قومه الظالمين .

والمثال الآخر هو : مريم ابنة عمران فهي كذلك مثل أعلى للإخلاص لله ، والامتثال لطاعته وعبادته منذ نشأتها إلى مماتها . فهي الطاهرة ﴿ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي عفَّت وعاشت حياة طاهرة ، فأعلن الله براءتها مما ألصق بها اليهود من التهم الباطلة . ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أي نفخ جبريل في جيب درعها(١) روحاً من خلق الله هي روح عيسى عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّها ﴾ أي صَدَّقت بالصحف المنزلة على أنبيائه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ ﴾ أي كانت من القوم المطيعين لربهم .

---

(١) جيب درعها : عنق القميص أو الصدر .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .
لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .
روح المعاني للألوسي .
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .
صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .


الفهرس

اسم السورة	رقم الصفحة
سُورَةُ المجَادَلة	٧
سُورَةُ الحَشْر	٢٩
سُورَةُ المُمْتَحِنَة	٥٥
سُورَةُ الصَّفّ	٧٣
سُورَةُ الجُمُعَة	٨٦
سُورَةُ المنَافِقُون	١٠١
سُورَةُ التَغَابُن	١١٣
سُورَةُ الطَّلَاق	١٢٩
سُورَةُ التّحْريم	١٤٦

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

- روح القرآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر : الحجر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام



هذا التفسير

- يعرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحاضر .

- يُعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .

- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .

- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .

- يعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجميع .

- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى

www.malayin.com
978-9953-63-180-6 دراسات اسلامية 00497
9 789953 631806 6